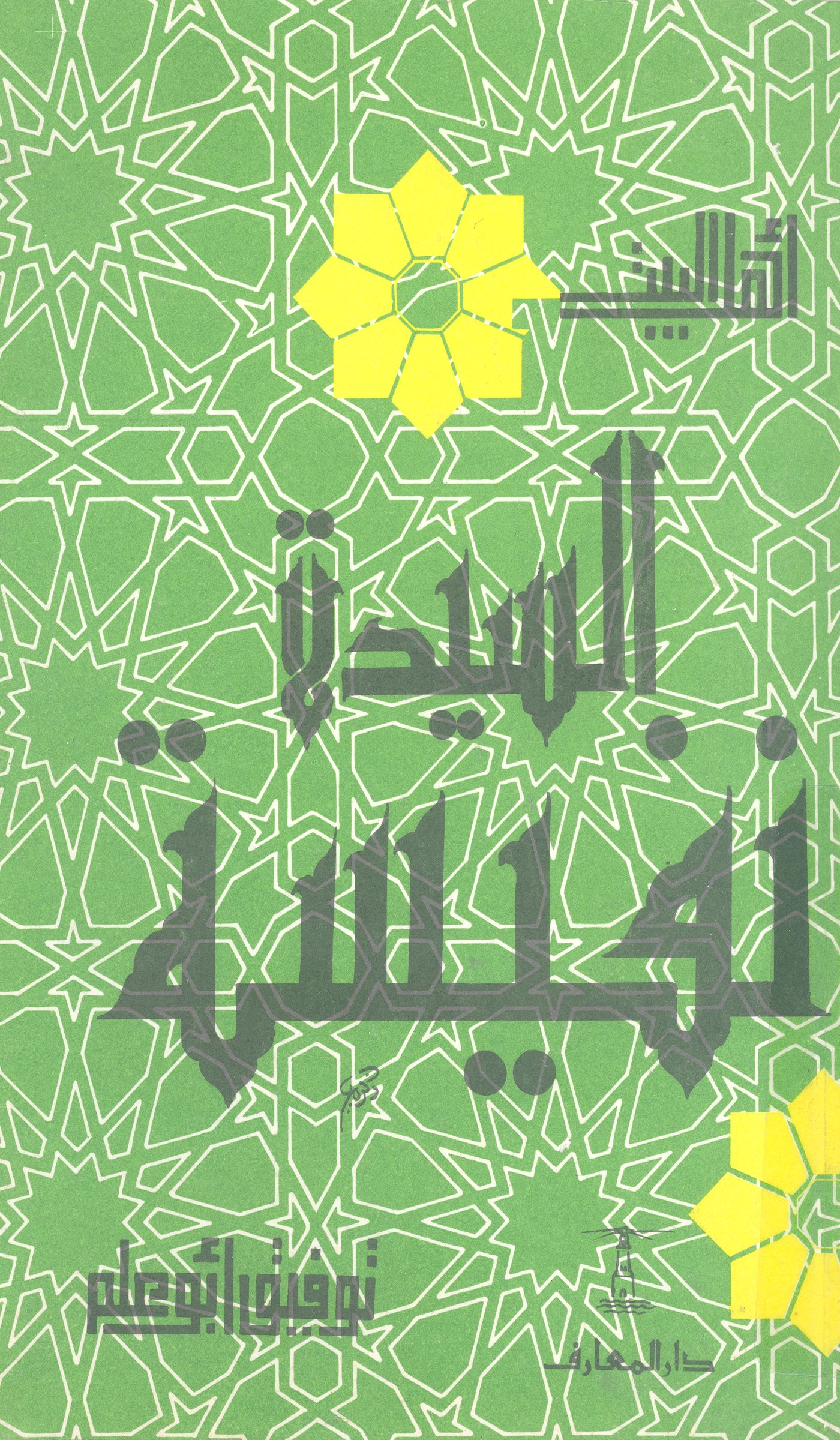

أهل البيت
السيدة نفيسة
توفيق أبو علم
دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

أهل البيت

السيدة نفيسة

رضى الله عنها

للأستاذ

توفيق أبو علم

رئيس مجلس إدارة مسجد السيدة نفيسة

ووكيل أول وزارة العدل سابقاً

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

سورة الأحزاب

﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله - اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، فكان منهم للناس الأسوة الحسنة فى النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

والصلاة والسلام على صفوة آل إبراهيم سيدنا ومولانا محمد الذى أرسله الله رحمة للعالمين، وبشرى للمؤمنين، فهدى الناس من الضلال، وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، ورضى الله عن آله وأصحابه وأزواجه وذريته الطيبين الطاهرين، وعمّن والاهم بإحسان ونظر فى سيرتهم بإمعان للعبرة، والاعتبار فكان من أولى الأبصار.

وبعد فأستميح القارئ عذرًا إذا قلت له: إننى هائم بحب أهل البيت، واتجهت دراساتى بالكامل إلى هذه السيرة العطرة بإمعان وبعمق، بل قد أقول: إنى قد تخصصت فى هذه الدراسة - كل هذا بفضل الله سبحانه وتعالى.

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلاّ المودّة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنًا إن الله غفور شكور﴾.

واقتراف الحسنة التى يزيدها الله حسنًا هو مودّة سادتنا آل البيت، وإرضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وما أبدع ما يقول سيدى محيى الدين بن عربى فى شعره الرقيق :

أرى حب أهل البيت عندى فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربا
فما اختار خير الخلق منّا جزاءه على هدْيه إلاّ المودّة فى القربى

وما أصدق ما يقول إمامنا علىّ فى السادة أهل البيت :

« أين الذين زعموا أنهم الراسخون فى العلم دوننا، كذبًا وبغيًا علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، وبنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى ».

وما أصدقه كرم الله وجهه حين يقول مرة أخرى فى وصف آل البيت : « هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم - لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه - هم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام - بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل

سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل».

والسيدة نفيسة موضوع كتابى هذا من أهل البيت - فهى كريمة الدارين ابنة الإمام الحسن الأنور بن زيد الأبلج ابن الإمام الحسن ابن الإمام علىّ بن أبى طالب، رضى الله عنهم أجمعين - وقد ولدت بمكة ونشأت بالمدينة وسيرى القارئ الكريم مدى حبها للعبادة من صغرها - وكانت لا تفارق حرم الرسول عليه الصلاة والسلام - وكانت تبكى بكاءً شديدًا وتتعلق بأستار الكعبة وتقول :

« إلهى وسيدى ومولاى : متّعنى وفرّحنى برضاك عنى، فلا تسبب لى سببًا به عنك تحجبنى ».

وسيرى القارئ أيضًا ما قصته زينب ابنة أخيها يحيى المتوج، طرفًا من حياة عمتها فتقول : « خدمت عمتى نفيسة أربعين سنة، فما رأيتها نامت الليل ولا أفطرت بنهار - فقلت لها : أما ترفقين بنفسك ؟ فقالت : كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبات لا يقطعها إلاّ الفائزون » وتقول زينب : كانت عمتى نفيسة تحفظ القرآن وتفسيره، وكانت تقرؤه وهى تبكى وتقول : إلهى وسيدى يسّر لى زيارة قبر خليلك إبراهيم. فاستجاب الرحمن لدعائها، وزارت هى وزوجها إسحاق المؤتمن، بن جعفر الصادق قبر الخليل ثم رحلا إلى مصر فى رمضان سنة ١٩٣ هـ.

وإنى أتمثل فى تاريخها ما حباها الله عز وجل من علم وخلق

أشم، وما اختصها الله به من نفحات وكرامات :

من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم في كل بدء ومختوم به الكلم
إن عدّ أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
يستدفع الشر والبلوى بحبهم ويسترب به الإحسان والنعم.

فنفحاتها نافحة، وبركاتها لائحة، وأنوارها ساطعة، وكراماتها رائعة، فلنقطف من حديقتها، ونستنير بنور رحبتها، ونستمسك بمحبتها والاهتداء بهديها، وأن نتوسل إلى الله سبحانه وتعالى فيما ينوبنا، فإنها من آل بيت اصطفاهم ربهم وأنزلهم فى علّيين، واستجاب دعاءهم.

هم القوم من أصفاهم الودّ ملخصًا تمسّك فى أخراه بالسبب الأقوى
هم القوم فاقوا العالمين مناقبًا محاسنهم تحكى وآياتهم تروى
موالاتهم فرض وحبهم هدى وطاعتهم ودّ وودّهم تقوى

فأمدّنا الله من فيض إمدادها وجعلنا الله فى زمرة أحبابها وقصّادها، فهى سيدة أهل اليقين، ورافعة لواء الإجابة للزائرين والقاصدين بابها.

وجاء فى كتاب (الدرة النفيسة فى ترجمة السيدة نفيسة)، أنه ينبغى لمن زار هذا المكان أن يقول عند دخوله من باب الضريح :

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد - اللهم إنك قد ندبتنى إلى أمر قد فهمته واعتقدته، وجعلته أجرًا لنبيك محمد صلى الله عليه وسلم، الذى هديتنا به إليك ودللتنا به عليك، فكان كما قلت وكان بالمؤمنين رحيمًا حبيبًا إليه ما هديتنا، عزيزًا عليه ما عنتنا، وتلك الفريضة التى سألتها له وهى المودّة فى القربى، اللهم إنى مؤدّيها مريد النفع بها فى دينى ودنياى، فتوسل إليه بها يوم انقطاع الأسباب، اللهم زدهم شرفًا وتعظيمًا، وهب لنا بزيارتهم مغفرة وأجرًا عظيمًا.

فإلى كل محب لسادتى آل البيت الكريم، أقدم هذا الكتيب - طامعا فى دعوة صالحة من كل قارئ وراجيًا أن ينفع الله به.

والله عز شأنه أسأل أن ينفعنا بسادتى أهل البيت الذى قال فيهم سبحانه وتعالى : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾.

وبشفاعة سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم

والحمد لله رب العالمين

وما توفيقى إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

توفيق أبو علم

رئيس مجلس إدارة مسجد

السيدة نفيسة

السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

خلق الناس من أشجار شتى، وخُلقت أنا وعلىّ بن أبى طالب من شجرة واحدة، أنا أصلها، وفاطمة فرعها، وعلى لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وشيعتنا أوراقها، فمن تَعَلَّق بغصن من أغصانها ساقه إلى الجنة، ومن تركها هوى إلى النار »

نفيسة الدارين . .

نفيسة العلم . .

نفيسة الطاهرة . .

نفيسة العابدة . .

نفيسة المصريين . .

وسيدة أهل الفتوة والتصريف، والسيدة الشريفة العلوية، وصاحبة الكرامات الطاهرة الوفيرة، والمناقب الفاخرة وأم العواجز، والسيدة المرضية، ومشبعة المحروم، وهى السيدة النقية، العفيفة، الزاهدة، الساجدة، الراكعة، المحدِّثة، المتبحرة، المتضلعة، الكثيرة النفحات، الغزيرة البركات، والبضعة المنيفة الناضرة، والزهرة الزاهرة سليلة النبوّة، وفرع الرسالة، وجناح الرحمة، كريمة

العنصر والمنبت من آل بيت من اصطفاه الله، رسول الله محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم، أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

هذه ألقاب السيدة نفيسة رضى الله عنها..

١ - فهى نفيسة الدارين : لعوارفها وصنائعها وشفاعتها يوم القيامة لقاصديها، وبجناح الرحمة : لتواضعها وخضوعها لبارئها، وشفقتها ورحمتها وبرها وصلتها لذويها ومعتفيها وقاصديها ويستظل زائرها بجناح رحمتها.

٢ - وهى نفيسة العلم، لما استنبطته من دخائل العلم، واستجلته من غوامضه، وما نثرته على طالبى الاستفادة منها، فكان يرجع إليها فى المشكلات، ويستصبح بضوئها فى المعضلات، وتشدّ إليها الرحال من أطراف البلاد فى طلب ما حذقته وأحكمته من علوم بيت النبوة، ويكفى أن نذكر هنا أنها تعلمت القراءة والكتابة قبل أن تبلغ السابعة من عمرها، وهى بلا شك علامة كبيرة مميزة تنبئ بما ينتظرها فى مستقبلها، وقد ساعدها ذلك على أن تحفظ القرآن الكريم وتجيده فى سن مبكرة.

٣ - وهى نفيسة الطاهرة : لطهارتها وتعبّدها، وهى السيدة العظيمة العابدة النقية الطاهرة.

٤ - وهى نفيسة العابدة : لعبادتها وتقواها، فإنها كانت من

السائحات العابدات الصالحات القانتات، تصوم نهارها وتقوم ليلها، وقد حجّت ثلاثين حجة أكثرها وهى ماشية، وكانت تتعلق بأستار الكعبة وتقول: «إلهى وسيدى ومولاى، متعنى وفرحنى برضاك عنى، فلا تسبب لى سببًا يحجبك عنى».

٥ - وهى نفيسة المصريين: لحب أهل مصر لها، ويكفى أن أقول فى أول هذا البحث، كما سيأتى بعد ذلك تفصيلا، أنها لما عزمت على الرحيل من مصر إلى بلاد الحجاز، شقّ ذلك على أهل مصر وسألوها فى الإقامة لحبّهم لها، كما أجمع أهل السير والتاريخ على وفاة السيدة نفيسة بالقاهرة، كما أجمعوا على أنها لما توفيت وصل زوجها فى ذلك اليوم وأراد حملها إلى المدينة لدفنها بالبقيع، فاجتمع أهل مصر إلى أمير البلد، واستجاروا به إلى زوجها ليردّوه عما أراد، وقد دفنت فعلا بالقاهرة كما سيأتى تفصيله، ولذلك كان المصريون يسمونها بنفيسة المصرية.

مولدها، ولماذا سميت باسم (نفيسة)؟

ولدت السيدة الطاهرة بمكة المكرمة، فى يوم الأربعاء الحادى عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة النبوية، وقد فرحت أمها بمولدها، واستبشر بها أبوها، وعمّت الفرحة أكناف بيتها، وقد زاد فى سرور أبيها وبهجته، أن تكشف

فى سيماها شبهًا عظيمًا بأخته عمتها السيدة نفيسة بنت زيد رضى الله عنها، وهى التى تزوج بها الخليفة الوليد بن عبد الملك، فاختار لها أبوها اسم عمتها لنفاستها، وما تبينه لبنته من وسام وقسام اختصت بهما أخته، وتفاؤلا بأن يكتب الله لها حظ عمتها، وما واتاها من سعادة ونعماء، وما لها من آثار وحظوة؛ إذ كانت محببة، ولها اليد البيضاء فى خلافة زوجها، إذ أنها دفعته إلى ما قام به فى عهده، فقد فتحت فى عهده فتوح عظيمة، وكان يتكفل بالأيتام، ويرتب لهم معاشهم، ومن يرعاهم، ومن يقوم بخدمتهم، وللعميان من يقودهم، وعمر المسجد النبوى ووسعه ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء، وأسبغ عليهم، وحرّم الاستجداء، وفرض لذوى الحاجات ما يكفيهم، وقد ضبط أمور الخلافة أتم ضبط.

عمّة السيدة نفيسة فى مصر:

ومن المصادفات الغريبة أن عمة السيدة نفيسة رضى الله عنها رحلت إلى مصر وتوفيت بها، ومقامها بالقرب من السيدة نفيسة؛ إذ أنها دفنت بالدار التى وهبت لها من والى مصر أخى زوجها عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وكانت من الصالحات، وقد توفيت قبل وفاة بنت أخيها.

والدها :

هو أبو محمد الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، فهى من دوحة النبوة التى طابت فرعًا، وزكت أصلا، ومن شعبة الرسالة التى سمت رفعة ونبلا قد اكتنفها العز والشرف، ولازمها السؤدد والكرامة :

يا حبذا روضة فى الخلد نابتة ما مثلها أبدًا فى الخلد من شجر
المصطفى أصلها والفرع فاطمة ثم اللقاح علىّ سيد البشر
والهاشميان سبطان لها ثمر والشيعة الورق الملتف بالثمر
هذا مقال رسول الله جاء به أهل الرواية فى العالى من الخبر
إنى بحبهم أرجو النجاة غدا والفوز فى زمرة من أفضل الزمر

وكان والدها إمامًا عظيمًا، وعالما جليلا من كبار أهل البيت معدودا من التابعين، مجاب الدعوة فاضلا شريفًا.

وفى سنة خمسين ومائة عزَل الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور عامله، جعفر بن سليمان عن إمرة المدينة، وولاها الحسن بن زيد، وقد بقى والياً على المدينة إلى أن عزله المنصور لوشاية فيه سنة ست وخمسين ومائة، فإن الحسن كان قد اصطفى ابن أبى ذئب محمد ابن عبد الرحمن بن المغيرة، وآواه وأكرمه، لكنه لم يأمن فلتات لسانه، فإن ابن أبى ذئب

ذهب إلى المنصور وأخبره بأن الحسن يطمع فى الخلافة، ويعمل على عودها للعلويين، فثارت ثائرة المنصور، وأمر بعزل الحسن وحبسه، وقد تسرع ابن أبى ذئب فى وشايته، إذ أنه غلب على ظنه طمع آل البيت فى الخلافة، وما يعرفه أنها حق لهم وهم أولى بها من غيرهم، مع أن الحسن كان معروفًا بمظاهرته لبنى العباس، ومناصرته لدولتهم، وكان أول من لبس السواد شعار العباسيين من العلويين، وقد لبث الحسن فى حبسه إلى أن ولى المهدى الخلافة، وكان يعرف منه علمه واعتداله، وزهادته وعبادته، فأمر بإخراجه من حبسه، وقرّبه منه واصطفاه.

وكان الحسن ذا حزم فى ولايته، وعزم فى إمرته، وشدة فى أخذ الناس بالحدود وحرمات الله، لا تأخذه رأفة فى دين الله، ولا تقفه رحمة عن إقامة حدوده.

ولما عاد إلى المدينة لم يعاتب ابن أبى ذئب.

ولما توفى أبوه زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو غلام، وترك عليه دينًا أربعة آلاف دينار، فحلف السيد حسن ألّا يظل رأسه سقف إلّا سقف مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بيت رجل يكلّمه فى حاجة حتى يقضى دين أبيه، فوفى بنذره، ووفى دين أبيه.

ومن كرمه أنه أتى بشاب شارب متأدب وهو عامل على المدينة

فقال : (يا ابن رسول الله لا أعود)، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم» وأنا ابن أبى أمامة ابن سهل ابن حنيف، وقد كان أبى مع أبيك كما علمت، فقال : صدقت، هل أنت عائد، قال : لا والله، فأقاله وأمر له بخمسين دينارًا، وقال له : تزود بها وعد إلى، فتاب الشاب، فكان الحسن يحسن إليه، وكان الحسن والد السيدة نفيسة مجاب الدعوة، يقال : مرت به امرأة وهو فى الأبطح ومعها ولدها ! فاختطفه عقاب، فسألت الحسن أن يدعو الله لها بردّه، فرفع يديه إلى السماء ودعا ربه، فإذا بالعقاب قد ألقى الصغير من غير أن يضره بشىء، فأخذته أمه.

ودخل عليه بعض الشعراء فأنشده.

* الله فرد وابن زيد فرد *

فقال : بفيك الأثلب، ألا قلت :

* الله فرد وابن زيد عبد *

ونزل عن سرير الإمارة، وألصق خدّه بالأرض، يسبح الله العلى الكبير، وكان رضى الله عنه جليلا جميلا، سريًا، سخيّا.

وفيه يقول الشاعر :

إذا أمسى ابن زيد لى صديقا فحسبى من مودته نصيبى

وقال آخر :

إلى حسن بن زيد بات نضوى ... يجوب السهل وهْنًا والأكاما
إلى رجل أبوه أبو المعالى ... وأول مؤمن صلى وصاما
أأشتَم أن أحبك يابن زيد ... وأن أهدى التحية والسلاما
وقد سلفت علىّ له أياد ... تعيش الروح منها والعظاما
وكان هو المقدم من قريش ... ورأس العز منها والسناما
وخيرهم لجار أو لصهر ... بتسكين الكلالة والذماما
وكان أشدهم عقلا وحلمًا ... وأبرحهم إذا ازدحم الزحاما

. وكان الحسن كثير الثراء، وله مال بالغابة، وقصره الحمراء كان من أعظم قصور المدينة، وقد أتاه مصعب بن ثابت الزبيرى وابنه عبد الله وهو يريد الركوب إلى ماله بالغابة فأنشده مصعب :

يابن بنت النبي وابن علىّ ... أنت أنت المجير من ذا الزمان
من زمان ألحّ ليس بناج ... منه من لا يجيره الخافقان
من ديون تنوءنا فادحات ... من يد الشيخ من بنى ثوبان
فى صكاك مكتبات علينا ... بمئين إذا عددن ثمان
بأبى أنت إن أخذن وأمى ... ضاق عيش النسوان والصبيان

فأرسل الحسن إلى ابن ثوبان فسأله فقال : على الشيخ سبعمائة وعلى ابنه مائة فقضى عنهما دينهما وأعطاهما مائتى دينار.

وقد خلف الحسن من الذكور تسعة ومن البنات اثنتين السيدة

أم كلثوم وقد تزوج بها أبو العباس السفاح الخليفة العباسى والسيدة نفيسة، ولم يبلغ واحد من أولاده من الشهرة وذيوع الذكر ما بلغته ابنته السيدة نفيسة فهى درّته اليتيمة وغرّته الوضاءة.

وأولاده الذكور هم : القاسم ومحمد وعلى وإبراهيم وزيد وعبد الله ويحيى وإسماعيل وإسحاق، أما أمهم فأم سلمة واسمها زينب بنة الحسن عمه ابن الحسن بن على بن أبى طالب.

وتزوج أم كلثوم عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم.

وقد توفى سنة ١٦٨ وهو فى طريقه إلى الحج فى صحبة أمير المؤمنين المهدى ودفن فى الحجاز، وقيل بالحاجر، ويذكر الشعرانى أنه مدفون بتربته المشهورة قريبا من جامع القراء بين مجراة القلعة (العيون) وجامع عمرو بن العاص ويغلب على الظن أنه دفن بالحاجر فى الطريق إلى مكة.

وروى أن الإمام زيد الأبلج والد السيد حسن الأنور، كان يأخذ بيد ولده الحسن ويدخل إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ويقول : «يا سيدى يا رسول الله هذا ولدى الحسن أنا عنه راض»، ثم يرجع وينصرف، فلما كان فى بعض الليالى نام فرأى المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو يقول له : «يا زيد إنى راض عن ولدك الحسن برضاك عنه، والحق سبحانه وتعالى راض عنه

برضاى عليه»، وجاء الحسن بالسيدة نفيسة إلى المدينة، وكان دائما يأخذ بيدها ويدخل بها إلى القبر الشريف ويقول: «يا رسول الله إنى راض عن بنتى نفيسة» ويرجع، فما زال يفعل حتى رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يقول: يا حسن إنى راض عن ابنتك نفيسة برضاك عنها، والحق سبحانه وتعالى راض عنها برضاى عنها»[1].

وزيد الأبلج هو ابن الحسن السبط بن سيدنا الإمام.

ويكفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول لسيدنا علىّ: «ادْنُ منى يا علىّ، خلقت أنا وأنت من شجرة أنا أصلها وأنت فرعها والحسن والحسين أغصانها فمن تعلق بغصن منها أدخله الله الجنة».

من هذا الغصن غصن القرن الأول للهجرة، جاءت نفيسة إحدى أغصان رياحين القرن الثانى.

---

(١) وجد ما يدل على دفن السيد زيد الأبلج بالقاهرة قريبا من جامع القراء بين مجراة القلعة وجامع عمرو، فى التربة المشهورة قريبا من جامع القراء، فقد وجد حجر عتيق شرقى مقام ولده السيد حسن الأنور بقرب جامع عمرو بعد مجراة القلعة بقليل مرقوم عليه نسب زيد.

أما الإمام محمد الأنور عم السيدة نفيسة فهو المشهد القريب من عطفة جامع طولون مما يلى دار الخليفة فى الزاوية التى ينزل إليها بدرج، وهو على يمين الطالب للسيدة سكينة ومكتوب على بابه فى لوح رخام هذا البيت

مسجد حل فيه نجل لزيد   ذلك الأنور الأجل محمد

أمها :

أما أمها فأم ولد، وأما إخوتها فأمهم أم سلمة زينب بنت الحسن ابن الحسن بن علّ رضى الله عنهم، وليس ذلك بضائرها ولا ما ينقص من قدرها فقديمًا تسرّى الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام، فكان من نسله صفوة خلق الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وقد تسرّى رسول الله صلى الله عليه وسلم مارية القبطية فولدت إبراهيم عليه السلام، وقد كان أبوها الحسن من أم ولد، وكذا زيد بن علّ رضى الله عنهما من أم ولد، وقد دخل على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام : بلغنى أنك تحدث نفسك بالخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة، فقال له : أما قولك انى أحدث نفسى بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلاّ الله تعالى : وأما قولك إنى ابن أمة فإسماعيل ابن أمة أخرج الله من صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم وإسحاق ابن حرة أخرج من صلبه القردة والخنازير، فقال له : قم. فقال : إذن لا ترانى إلاّ حيث تكره. فلما خرج من الدار قال : ما أحب أحد الحياة إلاّ ذلّ : فقال سالم مولى هشام : بالله لا يسمعن هذا الكلام منك أحد، وقد كان زيد رضى الله عنه من أحسن بنى هاشم عبادة وأجلهم سيادة، وكانت ملوك بنى أمية تكتب إلى صاحب العراق أن امنع أهلِ الكوفة من حضور مجلس

زيد بن علي، فإن له لسانًا أقطع من ظبة السيف، وأحدّ من شبا الأسنّة، وأبلغ من السحر والكهانة ومن النفث فى العقد.

وقال الشعبي : والله ما ولدت النساء أفضل من زيد بن علىّ ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد.

وقال أبو حنيفة : شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله، فما رأيت فى زمانه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جوابًا ولا أبين قولا، لقد كان منقطع النظير وكان يدعى بحليف القرآن قرأ مرة قوله تعالى : ﴿وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾، فقال : إن هذا لوعيد وتهديد من الله تعالى، ثم قال : اللهم لا تجعلنا ممن تولى عنك فاستبدلت به بديلا..

وقبل ذلك أعتق جدّه الحسين بن علىّ رضى الله عنهما جارية له وتزوج بها، وقد كان لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما بالمدينة من يكتب إليه بما يكون من أمور الناس وقريش خاصة، فكتب إليه أن الحسين بن على أعتق جارية له فتزوجها، فكتب معاوية إلى الحسين : «من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علىّ، أما بعد فإنه بلغنى أنك تزوجت بجاريتك وتركت أكفاءك من قريش ممن تستحسنه للولد وتمجد به فى الصهر، فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت».

فكتب إليه الحسين رضى الله عنه :

أما بعد فلقد بلغنى كتابك وتعييرك إياى بأنى تزوجت مولاتى وتركت أكفائى من قريش، فليس فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم منتهى فى شرف ولاغاية فى نسب، وإنما كانت ملك يمينى خرجت عن يدى بأمر التمست فيه ثواب الله تعالى : ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة، ووضع عنّا به النقيصة فلا لوم على امرئ مسلم إلاّ فى أمر مأثم، وإنما اللوم لوم الجاهلية ».

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه، وقال : لشدّ ما فخر عليك الحسين. قال : لا ولكنها ألسنة بنى هاشم الحداد التى تفلق الصخر وتغرف من البحر، وقد بينت ذلك كله فى الفصول السابقة الخاصة بأهل البيت.

وقال الأصمعى : كان أكثر أهل المدينة يكرهون الإماء حتى نشأ فيهم علىّ بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله رضى الله عنهم، ففاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً، فرغب الناس فى السرارى وأقبلوا على الزواج منهن، وقد تزوج علىّ زين العابدين رضى الله عنه جارية له بعد أن أعتقها، فبلغ ذلك عبد الملك ابن مروان فكتب إليه يؤنبه على فعلته فكتب إليه علىّ :

إن الله رفع بالإسلام الخسيسة وأتم به النقيصة وأكرم به من اللؤم.

جَدُّ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ
زَعِيمُ أَهْلِ الْبَيْتِ

كان الإمام الحسن جدّ السيدة نفيسة عميد أهل البيت بعد أبيه، وقد اختلف العلماء فى تعريف أهل البيت اختلافًا كبيرًا.

ويرجع الاختلاف إلى تفسير الآية الكريمة ﴿يا نساء النبى لستنّ كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول، فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفًا * وقَرْن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾.

والفريق الأول: من المفسرين يتمسكون بالسياق ويرون أن أهل البيت المذكورين فى الآية هن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقولون إن المراد بالبيت بيت النبى صلى الله عليه وسلم ومساكن زوجاته لقوله: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن﴾ وأيضًا السياق فى الزوجات من قوله: ﴿يأيها النبى قل لأزواجك﴾ إلى قوله ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾.

وعن طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾.

يقولون إنها نزلت فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم - ويذهب عكرمة إلى أن البيت أريد به مساكن النبى صلى الله عليه وسلم - ويقول - من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم - ويروى عن عكرمة أنه كان ينادى فى السوق أن الآية نزلت فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم.

ويقول الزجاج : إن أهل البيت فى الآية المذكورة يراد بهم نساء النبى صلى الله عليه وسلم - وقيل يراد بهم نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته.

ويقول بعض المفسرين : إن ورود الآية فى شأن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يغلب على الظن دخولهن فيهن والتذكير للتغليب فإن الرجال وهم النبى وعلىّ وأبناؤهم غلبوا على فاطمة وحدها أو مع أمهات المؤمنين ثم أكد التكاليف المذكورة بأن بيوتهن مهابط الوحى ومنازل الحكم والشرائع الصادرة من مشرع النبوّة ومعدن الرسالة ثم ختم الآية بقوله تعالى : ﴿إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾ إيذانا بأن تلك الأوامر والنواهى هى لطف منه فى شأنهن وهو أعلم.

وأما ما يتمسك به الفريق الأعم والأكبر من المفسرين فيتجلى

فيما روى عن أبى سعيد الخدرى قال - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نزلت هذه الآية فى خمسة فى وفى علىّ وحسن والحسين وفاطمة» رضى الله عنهم جميعًا وأخرجه الترمذى، وصححه ابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه من طرق - عن أم سلمة : قالت فى بيتى نزلت ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ وفى البيت فاطمة وعلىّ والحسن والحسين - فجللهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكساء كان عليه ثم قال : «هؤلاء بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا».

وعن أم سلمة أيضًا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى بيتها على منامة له عليه كساء خيبرى، فجاءت فاطمة ببرمة فيها حريرة - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ادعى زوجك وابنيك حسنًا وحسينًا» فدعتهم، فبينما هم يأكلون، إذ نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم بفضله. كساءة فغشاهم إياها - ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها إلى السماء ثم قال : «اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»، قالها ثلاث مرات.

قالت أم سلمة : فأدخلت رأسى فى الستر، فقلت : يا رسول الله وأنا معكم - فقال : (إنك إلى خير).

وفى رواية أخرى ومن طرق عديدة وصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ومعه علىّ وفاطمة وحسن وحسين وقد أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا وأجلس حسنًا وحسينًا كل واحد منهما بأعلى فخذه، ثم لفّ عليهما كساءً ثم تلا هذه الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا».

وفى رواية: «اللهم هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد».

وفى رواية أخرى لأم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ ثوبًا وجلله فاطمة وعليًّا والحسن والحسين وهو معهم وقرأ الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس﴾ قالت فجئت أدخل معهم فقال: «مكانك - إنك على خير».

وعنها أيضًا - قالت: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته يومًا إذ قالت الخادم: إن عليًّا وفاطمة بالسدّة، قالت: فقال لى: «قومى فنحى عن أهل بيتى». قالت فقمت فتنحيت فى البيت قريبًا فدخل علىّ وفاطمة ومعهم الحسن والحسين وهما صبيان صغيران فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره وقبلهما واعتنق عليًّا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى وقبّل فاطمة وقبل عليًّا فأغدق عليهم

خيصة ثم قال : « اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى » قلت : وأنا يا رسول الله قال : وأنت.

والظاهر أن هذا الفعل تكرر عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيت أم سلمة، يدل عليه اختلاف هيئة اجتماعهم وما جللهم به ودعاؤه لهم وجواب أم سلمة به - والمنع وقع من دخولها معهم فيما جللهم به وعليه يحمل قولها فى الحديثين « وأنا معهم »، أى أدخل معهم لا أنها ليست من أهل البيت بل هى منهم - وكذلك لما قالت فى الحديث الآخر « وأنا » ولم تقل معهم أى أنا أيضًا إلى الله لا إلى النار، قال : وأنت إلى الله لا إلى النار، وكذلك لما قالت : وأنا من أهل البيت. قال : وأنت من أهل البيت وابنتك أيضًا.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنه دخل صلى الله عليه وسلم على زينب بنت أبى سلمة فجعل حسنًا من شق وحسينًا من شق وفاطمة فى حجره فقال : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد »، وأنا وأم سلمة جالسان فبكت أم سلمة فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يبكيك ؟ فقالت : يا رسول الله خصصتهم وتركتنى وابنتى، فقال : إنك وابنتك من أهل البيت.

وعن أبى عمار قال : إنى لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا

عليًا رضى الله عنه فشتموه، فلما قاموا قال : اجلس حتى أخبرك عن هذا الذى شتموا. إنى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء علىّ وفاطمة وحسن وحسين فألقى عليهم كساءً له ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا ».

وفى رواية أخرى : حدثنا الإمام محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعى، حدثنا شداد بن عمار قال : دخلت على واثلة بن الأسقع رضى الله عنه، وعنده قوم فذكروا عليًّا رضى الله عنه فشتموه فشتمته معهم، فلما قاموا قال لى : شتمت هذا الرجل ؟ قلت : قد شتموه فشتمته معهم، قال ألا أخبرك بما رأيت من سول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : بلى، قال : أتت فاطمة رضى الله عنها فأجلسها بين يديه وأجلس حسنًا وحسينًا، رضى الله عنهما كل واحد منهما على فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه - أو قال كساءه - ثم تلا صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾، وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى، وأهل بيتى أحق ».

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى شريح بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد قال : دخلت مع أبى على عائشة رضى الله عنها فسألتها عن علىّ رضى الله عنه فقالت رضى الله عنها : تسألنى

عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تحبه ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا رضى الله عنهم فألقى عليهم ثوبًا، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا».

وقال الإمام الحسن رضى الله عنه فى بعض خطبه: «وأنا من أهل البيت الذى كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»، وقال أيضًا: «أنا أهل بيت أكرمنا الله بالإسلام واختارنا واصطفانا، وأذهب عنا الرجس وطهرنا تطهيرًا، لم تفترق الناس فرقتين إلّا جعلنا الله فى خيرهما من آدم إلى جدى محمد صلى الله عليه وسم، فلما بعثه الله للنبوّة، واختاره للرسالة وأنزل عليه كتابه، ثم أمره بالدعوة إلى الله عز وجل، فكان أبى أوّل من استجاب لله ولرسوله، وأوّل من آمن وصدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله فى كتابه المنزل على نبيه المرسل: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾. يقول: فجدّى الذى على بينة من ربه وأبى الذى يتلوه وهو شاهد منه.

والفريق الثالث من المفسرين جعل الآية شاملة للزوجات، ولعلىّ وفاطمة، والحسن والحسين، أما الزوجات، فلكونهن المراد فى

سياق هذه الآيات ولكونهن الساكنات فى بيوته صلى الله عليه وسلم النازلات فى منازله، ويؤيد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره، وأما دخول علىّ وفاطمة والحسن والحسين، فلكونهم قرابته وأهل بيته فى النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول، وهى أحاديث كثيرة، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل ما يجب إعماله وأهمل ما لايجوز إهماله وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبى وابن كثير والطبرى وغيرهم.

ويقول بعض المفسرين من هذا الفريق : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس﴾، فاستعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهر، وإنما أكد إزالة الرجس بالتطهير لأن الرجس قد يزول ولم يطهر المحل بعد، وأهل البيت نُصب على النداء أو على المدح وسنرى فى شرح آية المباهلة أنهم أهل العباء، النبى صلى الله عليه وسلم لأنه أصل، وفاطمة رضى الله عنها والحسن والحسين رضى الله عنهما بالاتفاق، والصحيح أن عليًّا رضى الله عنه منهم لمعاشرته بنت النبى صلى الله عليه وسلم، وملازمته إياه. وورود الآية فى شأن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يغلب الظن دخوهن فيه، والتذكير للتغليب، فإن الرجال وهم النبى وعلىّ وأبناؤهم غلبوا على أم سلمة وفاطمة وحدهما أو مع أمهات المؤمنين، ثم أكد التكاليف المذكورة أن بيوتهن

مهابط الوحى ومنازل الحكم والشرائع الصادرة من مشرّع النبوة ومعدن الرسالة، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إن الله كان لطيفا خبيرا﴾ إيذانًا بأن تلك الأوامر والنواهى لطف منه فى شأنهن وهو أعلم - وكذلك فإن فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أن الظاهر من الآية الكريمة أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم.

والفريق الرابع من المفسرين يقول: هم بنو هاشم، فعن زيد ابن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبًا فقال: «أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثا» فقيل لزيد: من أهل البيت؟

قال: أهل البيت من حرم الصدقة بعده.

وقيل: من هم؟ قال: آل علىّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت بيت النسب بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ أى اذكرن موضع النعمة إذ صيركن الله فى بيوت يتلى فيها آيات الله والحكمة، أو اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ الله، أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهداها.

وفى الصواعق: أن المراد بالبيت فى الآية يشمل بيت نسب النبي صلى الله عليه وسلم وبيت سكناه، فتشمل الآية أزواجه عليه السلام، وهو ما ذكرناه فى مقدمة هذا البحث عن ابن عباس،

وما ذكره أيضًا البيضاوى ويدل عليه ما قبل الآية وما بعدها.

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنى زهير بن حرب وشجاع بن مخلد جميعًا عن ابن علبة قال زهير حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنى أبو حيان حدثنى يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين ابن سبرة وعمر بن سلمة إلى زيد بن أرقم رضى الله عنه، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عله وسلم، قال : يا بن أخى والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما حدثتكم فاقبلوا ومالا فلا تكلفوا فيه، ثم قال ؛ قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومًا خطيبًا بماء يدعى « خما » بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : « أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به »، فحثّ على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال : « وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى - أذكركم الله فى أهل بيتى » ثلاثًا، فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟، قال : نساؤه ليسوا من أهل بيته، ولكن من أهل بيته من حرم

الصدقة بعده، قال : ومن هم قال : هم آل علىّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضى الله عنه، قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال : نعم.

وعن زيد بن أرقم أيضًا أنه ذكر الحديث بنحو ما تقدم، فقيل له : من أهل بيته، نساؤه؟ قال : لا، وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها، فترجع إلى أبيها وقومها... أهل بيته أصله وعصبيته الذين حرموا الصدقة بعده.

ويؤيد السيد باقر شريف القرشى هذا الحديث : فيقول فى كتابه عن حياة الإمام الحسن - رضى الله عنه : «إن الأخبار الصحيحة التى لا مجال للشك فيها فى سندها وفى دلالتها على اختصاص الآية الكريمة فى الخمسة من أهل الكساء عليهم السلام، وعدم تناولها لغيرهم من أسرة النبى صلى الله عليه وسلم، ومعنى ذلك أن ليس لنساء النبى صلى الله عليه وسلم نصيب فى هذه الآية، فقد اختص بها أهل الكساء ودلل على ذلك بما يأتى :

١ - خروجهن موضوعًا عن الأهل فإنه موضوع لعشيرة الرجل وذوى قرباه ولا يشمل الزوجة، ويؤكد هذا المعنى ما صرح به زيد ابن أرقم حينما سئل من أهل بيته - أى النبى صلى الله عليه وسلم - نساؤه؟ فقال : لا - وايم الله - إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبيته الذين حرموا الصدقة بعد.

٢ - أننا لو سلمنا أن الأهل يطلق على الزوج فلا بدّ من تخصيصه - ويفند السيد باقر القرشي ما قاله عكرمة يقول : إن عكرمة قال : إن الآية نزلت فى نساء النبي صلى الله عليه وسلم وكان ينادى بذلك فى السوق. وبلغ من إصراره أن كان يقول : «من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبي» ومن رأى السيد باقر القرشي أن عكرمة لا يعوّل على روايته لأنه عرف بعدم الدقة، فعن ابن المسيب أنه قال لمولى اسمه برد : لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس - وعن عثمان بن مرة قال للقاسم : إن عكرمة حدثنا عن ابن عباس كذا، فقال القاسم : يا بن أخى، إن عكرمة كذاب يحدث غده حديثًا يخالفه عشيًّا، ومع اتهامه بالكذب كيف يمكن التعويل على حديثه؟ ويستمر الأستاذ باقر شريف فى تحليل شخصية عكرمة، وينتهى بنتيجة أنه لا يمكن التعويل على روايته مضافًا إلى أنها من أخبار الآحاد ولا تصلح لمعارضة الأخبار الصحيحة المتواترة.

ويقول السيد محمد صادق الصدر[1] : إن الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم، وكله بنون النسوة فى الآيات السابقة على آية التطهير إلا هذه الآية ﴿إنما يريد الله﴾، ولو أراد الله تعالى أن يفصح عن عصمتهن لقال : إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس

---

(١) الإجماع فى التشريع الإسلامى.

ويطهركن تطهيرًا» والآيات كلها خاصة بالنساء وليس للرجال ذكر ليقال إن الله أتى بالتذكير على نحو التغليب فيشمل النساء والذكور. إن الله سبحانه وتعالى استأنف التأنيث بعد آية التطهير فقال تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾، أليس التأنيث المتكرر فى كل الآيات السابقة لآية التطهير والملاحظة لها كان مقصودًا، ولنذكر الأسباب المؤدية إلى نزول آيات النساء التى خصت زوجات النبى صلى الله عليه وسلم فإننا ان أمعنّا النظر بمنطوق الآيات وبسبب النزول نعرف أن آية التطهير لا يمكن انطباقها على الزوجات بصورة لا تقبل الشك.

ولو أراد المنصف أن يقتصر على ذلك لكفاه، فكيف وقد وردت أحاديث كثيرة متواترة (بيّنا ذلك سابقًا) مجمع على صحتها تدعم هذه النظرية وتساعد على فهم ذلك وتبرهن - بما لا مزيد عليه - على أن لآية التطهير أسبابًا لا تتصل بالأسباب الأولى دعت إلى نزولها، وقد شهد بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجتاه أم سلمة والسيدة عائشة، وربيبه عمر بن أبى سلمة، وروى ذلك كثير من الصحابة والثقات، ولم يتفق أن عنى المسلمون بمثل ما عنوا فى شأن هذه الآية الكريمة.

أما سبب نزول آيات النساء فقد قال الخازن، فى تفسيره ما نصه؛ «سبب نزول هذه الآية، أن نساء النبى صلى الله عليه

وسلم طالبنه من عرض الدنيا شيئاً، وطلبن منه زيادة فى النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى ألا يقربهن شهرًا، ولم يخرج إلى الصحابة، فقالوا : ما شأنه ؟ وكانوا يقولون : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، فقال عمر : لأعلمن لكم شأنه، قال : فدخلت على رسول الله فقلت : يا رسول الله أطلقتهن ؟ قال : لا، قلت : يا رسول الله إنى دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن ؟ قال : نعم إن شئت، فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله نساءه ».

« روى الواحدى بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها : هل لك أن أجعل بينى وبينك رجلا ؟ قالت : نعم، فأرسل إلى عمر فلما أن دخل عليهما قال لها : تكلمى، فقالت : يا رسول الله تكلم ولا تقل إلاّ حقًّا. فرفع عمر يده فوجأ وجهها، ثم رفع يده فوجأ وجهها، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كف، فقال عمر : ياعدوة الله، النبى لا يقول إلاّ حقًّا، والذى بعثه بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدى حتى تموتى، فقام النبى صلى الله عليه وسلم، فصعد إلى غرفته، فمكث فيها شهرًا لا يقرب شيئًا من نسائه يتغدى ويتعشى فيها، فأنزل الله تعالى هذه الآيات ».

ونستطيع أن نجزم أن السبب الرئيسى من هذه الأسباب التى استدعت غضبه وهجره لنسائه، هو الطعن الموجه إلى عدالته من زوجة تعرف نبوّته، وتفهم أنه المثل الأعلى للحق والعدالة.

لبث النبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ينتظر الوحى، فورد الأمر بأن يخير نساءه بالبقاء أو الفراق : ﴿يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجرا عظيمًا * يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرًا *ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحًا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقًا كريمًا * يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفًا * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله. . .﴾ الآيات.

فخيّر الرسول الكريم نساءه بعد نزول آية التخيير بين البقاء والطلاق فاخترن كلهن البقاء وآثرن الله ورسوله والدار الآخرة، وختمت هذه المشكلة برضا الرسول صلى الله عليه وسلم، وعودة الحياة الهانئة إلى بيت الزوجية فى سعادة ووئام.

هذا البيت الذى كان جوّه منكفهرا محزنًا، والذى صورته

الآيات السابقة وردت ضمنها آية التطهير ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ ويستمر الأستاذ محمد صادق الصدر فى شرح وجهة نظره ويقول:

فماذا قصد الإله الكريم بهذه الآية؟

هل نفهم منها ما فهم عكرمة لا: إن عقلنا يأبى ذلك. وإن لساننا العربى لا يفقه لغتها، ولا أخال أن المبتدئ فى اللغة يقر هذا الفهم إذا كان عقله سليماً لم تؤثر فيه الأغراض والأمراض.

كيف تنطبق الآية على النساء، وقد شهد الله لأهل البيت بالعصمة من الذنوب، فى حين أنا نعلم أن سبب الهجر قد أدانهن بالذنب، كما أن هجرهن له صلى الله عليه وآله وسلم أثبت عليهن النشوز الشرعى، وهو محرم صدوره مع الرجل أيًا كان، فكيف إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فرضت طاعته عليهن كزوج وكرسول الله صلى الله عليه وسلم، يضاف إلى ذلك التشكيك من بعضهن بعدالته، وهو النبي العادل الذى لا يمكن الشك فى قوله أو عمله مما هو غنى عن البيان.

إذن فكيف يشهد الله تعالى لهن بالعصمة؟ إذا كن المقصودات فى (أهل البيت)، وهن فى حال التلبس فى الذنب؟ هذا لا يصدر من الناس، فكيف ننسبه إلى الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا!.

وإذا كن غير مقصودات كما اتضح ذلك، فمن هم إذن أهل

البيت، ولماذا ذكر هنا هذا البيت؟

للرسول الكريم صلى الله عليه وآله بيتان: بيت الزوجية، و «بيت النبوّة».

أما بيت الزوجية، فلم يكن بيتًا واحدًا، وإنما كان بيوتًا متعددة تسكنها زوجاته صلى الله عليه وسلم، كما يشعر بتعددها صيغة الجمع فى قوله تعالى ﴿وقرن فى بيوتكن﴾ وفى قوله: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن﴾.

وأما «بيت النبوّة» فقد كان منحصرًا فى بيت واحد تسكنه ابنته الزهراء وابن عمه علىّ وريحانتاه الحسنان عليهم السلام.

وحيث قد انتفت العصمة عن تلك البيوت الممثلة بالأزواج بالنظر لارتكابهن المعصية، وخروجهن عن الطاعة، اتجهت العصمة إلى البيت الواحد، وأعلنها الوحى بقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾، فأورد البيت بالمفرد، وجاء بأل للعهد، ونصب أهلا ليخصّ بالمدح أهل البيت بمفردهم فى ظرف لا يمكن توجيه المدح إلى غيرهم.

ولو أراد بيوت السكن التى تقدم ذكرها لكرر جمعها، وألحق بها نون النسوة لتكون المقصودة بالذات.

فذكر البيت مفردًا ومتوسطًا بين آيتين فى كل منهما جاء البيت بالجمع لأكبر دليل على أن هذا المفرد ليس من تلك البيوت، وأن

أهله ليسوا مثل أهلها، فقد كان كل فرد من هذا البيت الطاهر أقرب الناس وأطوعهم إلى امتثال أمره ونهيه صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين.

إن بيت الزوجية يكونه السبب بإيقاع العقد الشرعى فيجعله سكنًا ومسكنًا وتقوض دعائمه فى كلمة واحدة تؤذن بالطلاق فإذا البيت يتهدم. وإذا بالزوجة تصبح امرأة أجنبية تخرج من أهله إلى أهلها والبيت الثانى «بيت النبوة» يكونه النسب. وكانت آية التطهير حجر الأساس لبناء كيان هذا البيت، لأن العصمة ملكة فى النفس تمنع صاحبها من أن تشوبه شائبة، فهو أبدًا طاهر مطهر من طهر طاهر. وقد أراد الله تعالى بعد أن عرّف الناس بالبيت الأول - أن يعرّفهم منزلة البيت الثانى، ليتضح الفرق بين البيتين، فيفهم كل بيت على واقعه. وحتى لا يحصل الالتباس، أو يطبق فى حقهما القياس فيكون كقياس إذ على إذا والمبتدأ على الخبر.

وهم كما قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن أهل البيت لا يقاس علينا أحد». إن البيت الأول تشيده كلمة وتهدمه كلمة، وإن البيت الثانى خالد ما خلد الدهر، لأنهم سلام الله عليهم أمان لأهل الأرض، قال جدهم صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الإمام أحمد فى المناقب: «النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتى أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض».

وهذا الحديث يشعرنا بوضوح ببقاء أهل البيت ذخرًا للناس، يهتدون بهديهم ويستضيئون بأنوارهم، كما يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما رواه عمر بن الخطاب «قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى خلوف من أمتى عدول من «أهل بيتى» **ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين،** وتأويل الجاهلين ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل فانظروا بمن توفدون».

وإذا كان ابن نوح كتب عليه الغرق، لأنه عمل غير صالح فلم يكتب له النجاة فى سفينة نوح أبيه، فإن أهل البيت هم سفن النجاة يسعفون كل من ركب سفينتهم وتمسك بحبل ولائهم.

إن أتباعهم يمخرون العباب متمسكين بأعدال الكتاب، كما قال صلى الله عليه وسلم: «مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تعلق بها فاز، ومن تخلف عنها زج فى النار» هذا هو البيت الثانى الذى أراد الله عز وجل أن يعرف الأمة به فى قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ فجاءت الآية الكريمة مشتملة على ما يوجب تركيز الثقة، وتوطيد دعائم العصمة فى كل فرد من أفراد هذا البيت الطاهر وينادى بفضل آل الرسول أعدال الكتاب، وقادة الأمة إلى الحق والصواب هذا هو البيت الذى أسس الله قواعده، وشيّد أركانه، وقال فيه

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت »، كما أخرجه الإمام أحمد فى المناقب.

ومن حديث أم سلمة، والذى سبق وأشرنا إليه، يرى السيد محمد الصدر أن هناك عدة أمور حرص عليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تطبيقا لآية التطهير :

١ - حصرهم تحت كساء واحد حتى لا يمكن اشتراك أحد من أهل الدار فى جلستهم الخاصة، وكأن الحصر المعنوى بـ(إنّما) أراد الرسول الأعظم تطبيقه بالفعل على الأشخاص الذين عناهم الله بالحصر.

٢ - لم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بحصرهم فى نطاق واحد حتى أشار إليهم بقوله : « اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا »، فأخبره عنهم - وهو يعلم أنه تعالى مطلع على ذلك - أخبره ليعلن رأيه، فتسمع أم سلمة، ومن شاهد نزول هذه الآية ليفهم أنها خاصة بهم دون سواهم. وكرر تلاوة الآية ثلاث مرات كى يؤكدها، ويتأكد من سماع أهل الدار لها.

٣ - قوله لأم سلمة إنك إلى خير مرتين، إشعار لها بأنها ليست من أهله الذين عناهم الله؛ ولذلك لم يأذن لها بالدخول معهم. وفى الوقت نفسه أكد لها أنها على خير.

وفى الرواية الأخرى التى ذكرها الخازن قول الرسول لها : « إنك إلى خير أنت من أزواج النبى ؛ لتعلم أن سبب عدم الإذعان لها بالدخول كونها من أزواجه، وهن لسن من أهله، وإلا فهى على خير مشعرًا برضاه عنها وأنها من أهل الجنة.

فتصريح أم سلمة، وتصريح السيدة عائشة، وعمر بن أبى سلمة، وزينب بنت أبى سلمة، وواثلة بن الأسقع فيما ذكره المحب فى ذخائره لم يُبق مجالا للقول بأن أهل البيت القصد منه الزوجات، أو أنهن يشتركن مع أقرباء النبى المذكورين فى شمول إطلاق أهل البيت عليهن.

إن جذب الرداء من أم سلمة - وقد حاولت أن تكون معهم - لأقوى دليل على عدم الشمول لهن فى الإطلاق، وإلاّ لأذن النبى صلى الله عليه وسلم لها، ولا سيما أنهم فى بيتها، وهى على خير برأى النبى صلى الله عليه وسلم.

وكما أن صريح الحديث أن « الخمسة » سلام الله عليهم كانوا يأكلون، ثم نزلت الآية فى حقهم، ولم تدع أم سلمة إلى مشاركتهم فى الطعام لأن مشاركتها لهم فى ذلك تشعر بدخولها معهم فى « أهل البيت »، وإذا دخلت، فإن النساء الباقيات يدخلن بأجمعن، ولو كن غير موجودات؛ لأن أم سلمة تعتبر ممثلة لهن، وهذا خلاف الغرض الذى يرمى إليه تعالى مما حدا بالرسول الكريم صلى

الله عليه وسلم، على ألا يدعوها إلى الطعام، وألا يدعها تدخل معهم تحت الكساء.

ونفهم بالإضافة إلى ما تقدم أن الله تعالى أنزل آية التطهير فى وقت كان الطعام من صنع «الزهراء» عليها السلام، وهى إحدى الأفراد «الخمسة» المعنيين بالآية الكريمة، كى لا تكون للنساء أى علاقة فى الموضوع، وأى مشاركة.

ونفهم أيضًا من طلب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى بضعته الزهراء أن تدعو بعلها وابنيها أنه كان صلى الله عليه وسلم على علم بما سينزل الله تعالى فى شأنهم من فضل عظيم، وإلّا فلماذا يدعوهم إلى طعام صنع فى دارهم؟

ونستشعر من صنع الزهراء للحريرة، أن ذلك كان فى الظرف الذى استدعى تخيير النساء بين الطلاق والبقاء، وأنه صلى الله عليه وآله كان مضربًا عن تناول طعامهن أيضًا بالإضافة إلى تركهن، الأمر الذى استدعى أن يجلب الطعام له من دار بضعته الزهراء أم الحسنين عليها السلام.

ونفهم من تكرار الحديث تكرار صنع الطعام، وإن كانت الآية الكريمة نزلت بعد صنع الحريرة أول مرة، وكلها كانت من صنع الزهراء سيدة النساء.

وقد أذاع النبى الكريم صلى الله عليه وسلم هذه الكرامة لأهل

بيته، وأخذ يوطدها فى أذهان الناس، ويكررها كلما مر فى صلاة الفجر على «أهل البيت».

وهنا نقطة لابدّ من ملاحظتها، وهى أن آية التطهير - كما يظهر مِن كل مَن نصّ على نزولها - أنها آية مستقلة، وليست جزءًا من آية.

ولم يكشف المفسرون، أو المحدثون، عن الظرف الذى أحاط بالنزول، وهل وافق نزولها مع نزول الآيات التى خصّت نساء النبى صلى الله عليه وسلم، **أو كان ذلك من قبل، أو من بعد؟**

ولعل وضعها هنا كان لوجود القدر الجامع بينها وبين آيات الأزواج، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم عماد «أهل البيت» فقد كان أبو القاسم - صلى الله عليه وآله وسلم - «القاسم المشترك» للجميع وكلهم من رجال ونساء لا يخرجون عن أهله، أو عن أهل داره وهذا كاف لأن يجعل انسجامًا فى العرض، ووحدة فى السياق بين آية التخيير فى النساء، وآية التطهير فى أهل البيت سلام الله عليهم، وفى هذا الدليل على عصمة أهل البيت المتمثل بالرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وأهل بيته الطاهرين.

وأما عصمة «أهل البيت» من الخطأ فحسبنا الحديث النبوى المجمع على صحته وتواتره: «إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض،

وعترتى أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردّا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما».

وفى الحديث أمران كل منهما يكفى للدلالة على العصمة من الخطأ:

١ - جزم صلى الله عليه وسلم، بصورة قاطعة على أن التمسك بالكتاب وبأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم يستدعى ألّا يضل المسلم عن طريق الحق والصواب.

٢ - حكم صلى الله عليه وسلم حكمًا لا يقبل الشك بأنهما لن يفترقا، ولو جاز الخطأ لافترقا، ولا شك أن الذى يكون مع القرآن لا يتصور فى حقه الخطأ، وهذا ما جعل الإمامية تجمع على حجية إجماع أهل البيت - عليهم السلام - معتبرة خلاف غيرهم كالعدم فلا يضر بالإجماع؛ لأن رأيهم من رأى جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله: ﴿وحى يوحى﴾ فلا يجوز أن يترك رأيهم ويؤخذ رأى غيرهم وهو معرض للخطأ والصواب.

وقد أراد النبى الكريم صلى الله عليه وسلم أن يعرف أمته منزلة عترته العلمية ليكون التمسك بأهل بيته تمسكاً من حيث الولاء، وتمسكاً من حيث العلم، فقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبرانى فى حديث الثقلين: «فلا تقدموهما - أى القرآن والعترة -

"فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم».

وقد علق ابن حجر على هذه الفقرات من الحديث الشريف فقال:

«فى قوله صلى الله عليه وسلم دليل على أن من تأهل منهم للمراتب العلية، والوظائف الدينية، كان مقدمًا على غيره».

ولا شك أن المقصود من حثّه صلى الله عليه وسلم على التمسك بالقرآن والعترة إنما هو الاهتداء بهما، والاسترشاد بحكمهما وأقوالهما، كى لا يضلوا، وواضح أن من ترك التمسك بهما ضل الطريق بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وسلك طريقًا قد خالف القرآن والسنة، وهذا أمر معلوم من منطوق الحديث ومفهومه».

هذا رأى الإمامية فى حجية إجماع «أهل البيت»، وأما رأى المذاهب الإسلامية الأربعة فى إجماعهم - سلام الله عليهم - فهو عدم الحجية؛ لأنهم يرون أن أهل البيت بعض الأمة فلا يحقق قولهم إجماعًا.

قال الشوكانى فى كتابه إرشاد الفحول ما نصه: «وذهب الجمهور أيضًا إلى أن إجماع «العترة» وحدها ليس بحجة، وقالت الزيدية والإمامية هو حجة». ثم قال: «وقد استدلوا بأحاديث

كثيرة جدًّا تشتمل على مزيد شرفهم، وعظيم فضيلتهم، ولا دلالة فيها على حجية قولهم، وقد أبعد من استدل بها على ذلك».

ويقول عبد العزيز البخارى فى شرحه «كشف الأسرار» على أصول اليزدوى : «وكذا ما تمسك به الفريق الثانى؛ لأن المراد من قوله ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم قال : وكذا قوله : «تركت فيكم الثقلين» من الآحاد، وخبر الواحد ليس بحجة عندهم على أنه يفيد التمسك بالكتاب والعترة، ولا العترة وحدها مع أنه معارض بنحو «أصحابى كالنجوم» الدال على جواز التمسك بكل واحد من الصحابة وكون التمسك مهديًا وإن خالف الصحابى أهل البيت، وحينئذ لا يكون قولهم واجب الاتباع».

أما قوله : إن آية التطهير المقصود منها الأزواج فقد أوضحنا بما لا مزيد عليه، أن المقصود من أهل البيت هم العترة الطاهرة لا الأزواج.

وقد اعترف الشوكانى فى إرشاد الفحول بهذه الحقيقة، فقال ما نصه ردًّا على من قال إنها نزلت فى النساء :

«ويجاب عن هذا بأنه قد ورد بالدليل الصحيح أنها نزلت فى علىّ وفاطمة والحسنين، وقد أوضحنا الكلام فى هذا فى التفسير»

الكبير الذى سميناه (فتح القدير)».

وأما قوله: حديث الثقلين خبر واحد وأنه ليس بحجة عندنا، فهذا مردود لأن خبر الثقلين متواتر ومجمع على صحته، وقد نصّ ابن حجر فى (صواعقه) بأن طرقه كثيرة، وأنه ورد عن نيف وعشرين صحابيًا، وأنه تكرر الحديث منه صلى الله عليه وآله وسلم فى موارد عديدة اهتمامًا بشأن الكتاب العزيز، والعترة الطاهرة.

وأما قوله: بأن خبر الواحد ليس بحجة عندنا، فهو قول لأحد أعلامنا المتقدمين وإلاّ فإن الإمامية، منذ السابق وإلى اليوم، مجمعة على حجية الخبر إذا صح وروده عن المعصوم، وهذا أمر واضح لكل من رجع إلى كتبنا الأصولية.

وأما قوله: إن حديث الثقلين يفيد التمسك بالكتاب والعترة، لا بالعترة وحدها، فهذا صحيح، والإمامية لا ترى غير ذلك، وتجزم معتقدة بأن الكتاب والعترة متلازمان لا يفترقان كما هو صريح الحديث، وهذا هو حجر الأساس فى حجية قول أهل البيت دون سواهم.

وأما قوله: إن حديث الثقلين معارض بنحو «أصحابى كالنجوم»، فقد عرفت أن الحديث ثابت الوضع فلا يقوى على المعارضة.

وكان على صاحب (كشف الأسرار) أن يكشف لنا عن سر

المرجح الذى قدم القول المكذوب على الحديث الثابت، اللهم إلّا أن يكون السر هو الميل القلبي إلى قوم، والانحراف بالقلب عن آخرين، ويدل على ذلك تقديمه لقول الصحابى بمفرده على رأى أهل البيت بمجموعهم.

وللإمام جلال الدين السيوطى بحث مستفيض فى أهل البيت - قال: «أولاد السيدة زينب من عبد الله بن جعفر رضى الله عنهم موجودون بكثرة» وتكلم عليهم من عشرة أوجه:

١ - أنهم من آل النبي صلى الله عليه وسلم أهل بيته بالإجماع، لأن آل البيت هم المؤمنون من بنى هاشم والمطلب، وأخرج مسلم والنسائى - كما سبق وذكرنا - عن زيد بن أرقم، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبًا فقال: «أذكركم الله فى أهل بيتى» ثلاثًا، فقيل لزيد بن أرقم: ومن أهل بيته؟ قال: أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده، قيل: ومن هم؟ قال: آل علىّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس.

٢ - أنهم من ذريته وأولاده بالإجماع، وهذا المعنى أخص من الذى قبله. وقال البغوى فى التهذيب: «أولاد بنات الإنسان لا ينسبون إليه، وإن كانوا معدودين فى ذريته، حتى لو أوصى لأولاد أولاد فلان يدخل فيه والد البنت».

٣ - أنهم هل يشاركون أولاد الحسن والحسين عليهم السلام،

فى أنهم ينسبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم؟ الجواب : لا . .
وهذا المعنى أخص من الوجه الذى قبله، وقد فرق الفقهاء بين من يسمى ولدا للرجل وبين من ينسب إليه؛ ولهذا قالوا : لو قال وقفت على أولادى دخل ولد البنت. ولو قال : وقفت على من ينسب إلى من أولادى لم يدخل ولد البنت.

وقد ذكر الفقهاء من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه ينسب إليه أولاد بناته ولم يذكروا مثل ذلك فى أولاد بنات بناته، فالخصوصية للطبقة العليا فقط، فأولاد فاطمة عليها السلام الأربعة ينسبون اليه، وأولاد الحسن والحسين ينسبون إليهما فينسبون إليه، وأولاد زينب وأم كلثوم ينسبون إلى أبيهم عمر وعبد الله لا إلى الأم - ولا إلى النبى صلى الله عليه وسلم لأنهم أولاد بنت بنته لا أولاد بنته، فجرى الأمر فيهم على قاعدة الشرع فى أن الولد يتبع أباه فى النسب لا أمه، إنما خرج أولاد فاطمة وحدها للخصوصية التى ورد الحديث بها وهو مقصور على ذرية الحسن والحسين.

أخرج الحاكم فى المستدرك عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لكل بنى أم عصبة، إلاّ ابنى فاطمة أنا وليهما، وعصبتهما» فانظر إلى لفظ الحديث كيف خصّ الانتساب والتعصيب بالحسن والحسين دون أختيهما، لأن أولاد أختيهما إنما ينسبون إلى آبائهم.

ولهذا جرى السلف والخلف على أن ابن الشريفة لا يكون شريفًا ولو كانت الخصوصية عامة فى أولاد بناته، وإن سفلن، لكان ابن كل شريفة شريفًا تحرم عليه الصدقة، وإن لم يكن أبوه كذلك كما هو معلوم؛ ولهذا حكم صلى الله عليه وسلم لابنى فاطمة دون غيرها من بناته؛ لأن أختها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعقب ذكرًا حتى يكون كالحسن والحسين فى ذلك، وإنما أعقبت بنتًا هى أمامة بنت أبى العاص بن الربيع، فلم يحكم لها صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم مع وجودها فى زمنه، فدلّ على أن أولادها، لا ينسبون إليها لأنها بنت بنته، وأما هى فكانت تنسب إليه بناء على أن أولاد بناته ينسبون إليه، ولو كان لزينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد ذكر، لكان حكمه حكم الحسن والحسين فى أن أولادها ينسبون إليه صلى الله عليه وسلم.

هذا تحرير القول فى هذه المسألة، وقد خبط جماعة من أهل العصر فى ذلك ولم يتكلموا فيه بعلم.

٤ - أنهم هل يطلق عليهم أشراف؟ والجواب : أن اسم الشريف كان يطلق فى الصدر الأول على كل من كان من أهل البيت، سواء كان حسنيًّا، أم حسينيًّا، أم علويًّا من ذرية محمد ابن الحنفية، وغيره من أولاد على بن أبى طالب أم جعفريًّا، أم عقيليًّا، أم عباسيًّا، ولهذا تجد تاريخ الحافظ الذهبى مشحونًا فى

التراجم بذلك : يقول الشريف العباسي ، الشريف العقيلي ، الشريف الجعفري ، الشريف الزينبي ، فلما ولى الخلفاء الفاطميون بمصر قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط ، فاستمر ذلك بمصر إلى الآن .

وقال الحافظ ابن حجر فى كتاب الألقاب : الشريف ببغداد لقب لكل عباسى ، وبمصر لكل علوى ، ولا شك أن المصطلح القديم أولى ، وهو إطلاقه على كل علوى وجعفرى ، وعقيلى ، وعباسى ، كما صنعه الذهبى ، وكما أشار إليه الماوردى من أصحابنا ، والقاضى أبو يعلى من الحنابلة ، كلاهما فى الأحكام السلطانية ، ونحوه قول ابن مالك فى الألفية : « وآله المستكملين الشرفا » ، فلا ريب فى أنه يطلق على ذرية زينب المذكورين أشراف ، وكم أطلق الذهبى فى تاريخه فى كثير من التراجم قوله : الشريف الزينبى ، وقد يقال يطلق على مصطلح أهل مصر ، الشريف أنواع عام لجميع أهل البيت ، وخاصة بالذرية ، فيدخل فيه الزينبية ، وأخص منه شرف النسبة ، وهو مختص بذرية الحسن والحسين - عليهما السلام - .

٥ - أنهم تحرم عليهم الصدقة بالإجماع لأن بنى جعفر من الآل .

٦ - أنهم يستحقون سهم ذوى القربى بالإجماع .

٧ - أنهم يستحقون من وقف بركة الحبش بالإجماع ، لأن بركة

الحبش لم تقف على أولاد الحسن والحسين خاصة، بل وقفت نصفين :

النصف الأول على الأشراف وهم : أولاد الحسن والحسين.

والنصف الثانى على الطالبيين وهم : ذرية على بن أبى طالب، من محمد بن الحنفية وإخوته، وذرية جعفر بن أبى طالب، وذرية عقيل بن أبى طالب، وثبت هذا الوقف على هذا الوجه على قاضى القضاة بدر الدين يوسف السنجارى، فى ثانى عشر من ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة، ثم اتصل ثبوته على شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام، تاسع عشر من ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم اتصل ثبوته على قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة، ذكر ذلك ابن المتوج فى كتابه إيقاظ المتأمل.

٨ - هل يلبسون العلامة الخضراء؟ والجواب : أن هذه العلامة ليس لها أصل فى الشرع، ولا فى السنّة، ولا كانت فى الزمن القديم، وإنما حدثت فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بأمر الملك الأشرف شعبان ابن حسين، وقال فى ذلك جماعة من الشعراء ما يطول ذكره، من ذلك قول أبى عبد الله بن جابر الأندلسى الأعمى صاحب شرح الألفية المشهور بالأعمى والبصير :

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوّة فى وسيم وجوههم ... يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وقال الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشق :

أطراف تيجان أتت من سندس خضر بأعلام من الأشراف
والأشرف السلطان خصصهم بها شرفًا ليعرفهم من الأطراف

وحظ الفقيه فى ذلك إذا سئل أن يقول : ليس هذه العلامة إلّا بدعة مباحة لا يمنع منها من أرادها من شريف وغيره، ولا يؤثر بها من تركها من شريف وغيره، وبالمنع منها لأحد من الناس كائنًا من كان ليس أمرًا شرعيًّا؛ لأن الناس مضبوطون بأنسابهم الثابتة، وليس لبس العلامة مما ورد به شرع، فيتبع إباحة ومنعا، أقصى ما فى الباب أنه أحدث التمييز بها لهؤلاء عن غيرهم، فمن الجائز أن يخص ذلك بخصوص الأبناء المنتسبين إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وهم ذرية الحسن والحسين، ومن الجائز أن يعمم فى كل ذريته، وإن لم ينسبوا إليه كالزينبية، ومن الجائز أن يعمم فى كل أهل البيت، كباقى العلوية، والجعفرية، والعقيلية، كل جائز شرعا، وقد يستأنس فيها بقوله تعالى : ﴿يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك، ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ فقد استدل بها بعض العلماء على تخصيص أهل العلم بلباس يختصون به من تطويل الأكمام، وإدارة الطيلسان ونحو ذلك ليعرفوا فيجلوا، تكريمًا للعلم، وهذا وجه حسن، والله أعلم.

٩ - هل يدخلون فى الوصية على الأشراف؟

١٠ - هل يدخلون فى الوقت على الأشراف ؟

والجواب : أنه إن وجد فى كلام الموصى والواقف نص يقتضى دخولهم، أو خروجهم اتبع، وإن لم يوجد فيه ما يدل على هذا ولا هذا، فقاعدة الفقه أن الوصايا والأوقاف، تنزل على عرف البلد، وعرف مصر من عهد الخلفاء الفاطميين إلى الآن أن الشريف لقب لكل حسنى وحسينى خاصة، فلا يدخلون على مقتضى هذا العرف، وإنما قدمت دخولهم هذا فى وقف بركة الحبش؛ لأن واقفها نص فى وقفه على ذلك حيث وقف نصفها على الأشراف ونصفها على الطالبيين.

ويقول الأستاذ أحمد فهمى : إن الشرف، بمعنى الرفعة والفضيلة كان يطلق فى الصدر الأول، منذ انبثاق نور الإسلام، على كل من كان من أهل البيت، الذين ينتظمهم قول القائل :

علىّ، وعباس، عقيل، وجعفر وحمزة هم آل النبى بلا نكر

وإن نظرة إلى تاريخ الذهبى الكبير، تراه مملوءًا فى تراجمه، بالشريف العباسى، الشريف العلوى، الشريف العقيلى، الشريف الجعفرى، الشريف الحمزى.. إلخ هذا. وإن تخصيص الشرف بذرية السبطين، ليس بشرعى، بل هو عرفى، وقد تواضع عليه القوم، وأحدثوه بعد القرون الثلاثة الأولى، لمزيد قرب السبطين من النبى صلى الله عليه وسلم، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « إن كل

بني أب عصبة ينتمون إليها إلّا ولد فاطمة، فأنا وليهم وعصبتهم، وهم عترتي، خلقوا من طينتي، ويل للمكذبين بفضلهم، ومن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله».

وشرف ذرية السبطين عام، لا فرق فيه بين أولاد ذكورهما، وأولاد إناثهما؛ لأبوة النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، كتابًا، وسنّة وإجماعًا، فقوله تعالى ﴿ومن ذريته، داود وسليمان﴾ الآية، آية على **أن ابن البنت من الذرية، إذ جعل الله عيسى من ذرية نوح أو إبراهيم.**

وفي مطلب السؤال في مناقب آل الرسول، لمحمد بن طلحة، قال: قد نقل أن الشعبي كان يميل إلى آل الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان لا يذكرهم إلّا وهو يقول: هم أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم وذريته، فنقل عنه ذلك إلى الحجاج بن يوسف، وتكرر ذلك عنه، وكثر نقله عنه، فأغضبه ذلك من الشعبي ونقم عليه، فاستدعاه الحجاج يومًا، وقد اجتمع لديه أعيان المصرين الكوفة، والبصرة، وعلماؤهما، وقراؤهما، فلما دخل الشعبي لم يهش له، ولا وفاه حقه من الرد عليه، فلما جلس قال له: يا شعبي ما أمر بلغني عنك، فيشهد عليك بجهلك، قال: ما هو يا أمير! قال: ألم تعلم أن أبناء الرجل هل ينسبون إلّا إليه، والأنساب لا تكون إلّا بالآباء، فما بالك تقول عن أبناء عليّ إنهم أبناء رسول

الله صلى الله عليه وسلم وذريته، وهل لهم اتصال برسول الله صلى الله عليه وسلم، إلاّ بأمهم فاطمة، والنسب لا يكون بالبنات، وإنما يكون بالأبناء؟

فأطرق الشعبي ساعة، حتى بلغ الحجاج في الإنكار عليه، ووقع إنكاره في مسامعه والشعبي ساكت، فقال: يا أمير ما أراك إلا تكلمنا بكلام من يجهل كلام الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم أو يعرض عنهما، فازداد الحجاج غضبًا منه وقال: ألمثلي تقول هذا يا ويلك؟ قال: نعم هؤلاء قراء المصرين، حملة الكتاب العزيز، أليس قد قال الله تعالى: ﴿يا بني آدم، يا بني إسرائيل﴾ وعن إبراهيم ﴿ومن ذريته عيسى﴾، وهل كان اتصال عيسى بالثلاثة إلاّ بأمه، وقد صح النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا ابني سيد شباب أهل الجنة»، فخجل الحجاج، وعاد يتلطف الشعبي.

وقد قال أبو بكرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، على المنبر والحسن إلى جنبه، ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة، ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

وقد سأل عراقي، ابن عمر رضي الله عنهما، عن دم البعوض، يصيب الثوب، فقال ابن عمر: انظروا إلى هذا يسأل عن دم

البعوض، وقد قتلوا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا».

وفى صحيح الترمذى، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يخطب إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام، وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر، فجمعهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما، وقال جابر بن عبد الله: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يوم عرفة، وهو على ناقته يخطب فسمعته يقول: «يأيها الناس قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتى، أهل بيتى» ومما أخرجه الطبرانى فى كبيره، عن جابر والخطيب فى تاريخه عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى جعل ذرية كل نبى فى صلبه، وجعل ذريتى فى صلب علىّ»، أى أولاده من فاطمة دون غيرها، فمن خصائصه صلى الله عليه وسلم، أن أولاد بناته ينسبون إليه.

وقد قال عمر رضى الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة، إلا سببى ونسبى،

وكل ولد أم فإن عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولد فاطمة، فإنى أنا أبوهم وعصبتهم ».

وأخرج الطبرانى أنه صلى الله عليه وسلم قال: «كل بنى أم ينتمون إلى عصبة إلاّ ولد فاطمة، فأنا وليهم وعصبتهم».

ولهذا الحديث طرق كثيرة، يقوى بعضها بعضًا، ويشهد لصحته، صحة حديث تزوج عمر بأم كلثوم، فقد خطبها عمر إلى علىّ، فذكر له صغرها، فقيل له: إنه ردك، فعاوده، فقال له على: أبعث بها إليك، فإن رضيت فهى امرأتك، فأرسل بها إليه، فكشف عن ساقها، فقالت له: لولا أنك أمير المؤمنين، للطمت عينيك، وفى رواية: لكسرت أنفك، ثم جاءت أباها فقالت: بعثتنى إلى شيخ سوء، وأخبرته، فقال لها: يا بنية إنه زوجك، فتزوج بها على مهر أربعين ألفًا، ثم جاء عمر إلى المهاجرين فقال: زفونى فزفوه، فقالوا: بمن تزوجت قال: بنت علىّ، إن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «كل نسب وسبب سيقطع يوم القيامة، إلاّ نسبى وسببى، وكنت قد صاهرت، فأحببت هذا أيضًا».

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ابن أخت القوم منهم»، وقد استدل به الإمام أبو بكر من كبار الحنابلة، على أنه لا يجوز دفع الزكاة إلى ولد هاشمية من غير هاشمى اعتبارًا بأمه. وعن زيد بن أرقم، رضى

الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله عز وجل، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تلحقون بى فيهما ».

وعنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى عز وجل فأجيبه، وإنى تارك فيكم الثقلين أولهما : كتاب الله فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله عز وجل وخذوا به - وحث فيه ورغب فيه - ثم قال وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاث مرات » فقيل لزيد : من أهل بيته أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال : بلى إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده، قيل : ومن هم؟ قال : آل على وآل جعفر وآل عقيل وآل عباس، قيل : أكل هؤلاء حرم عليهم الصدقة؟ قال : نعم »، أخرجه مسلم ولا خلاف فى انعقاد الإجماع على شرف السبطين، وأختيهما لشرف أمهم عليها السلام، بولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، فوجب أن يطّرد انعقاده فى كل من له بالنبى صلى الله عليه وسلم ولادة من قبل أم أو أب.

وقد قال العلامة الزرقانى، فى شرح المواهب عند تعريف

المصنف بالسيدة زينب بنت الزهراء عليها السلام : إنها تزوجت بابن عمها عبد الله بن جعفر، وولدت له عدة أولاد منهم علىّ وأم كلثوم، وأم كلثوم هذه تزوجت القاسم بن محمد بن جعفر، وولدت له عدة أولاد، منهم فاطمة تزوجت حمزة بن عبد الله بن الزبير، وله منها عقب، ثم قال : بالجملة فعقب عبد الله بن جعفر، انتشر من علىّ وأخته أم كلثوم ابنى زينب بنت الزهراء عليها السلام.

قال الزرقانى : ولا ريب أنهم تحرم عليهم الصدقة إجماعًا؛ لأن بنى جعفر من الآل وأنهم يستحقون سهم ذوى القربى بالإجماع، وأنهم من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم وأولاده عليهم السلام إجماعًا.

وقد ورد فى البخارى، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قسم مروطا بين نساء من نساء المدينة. فبقى مرط جيد، فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عندك، يريدون أم كلثوم بنت علىّ، فقال عمر : أم سليط أحق، وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر : فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد، وتزفر تخيط.

وقد قال ابن القيم فى كتابه : (جلاء الأفهام، فى الصلاة والسلام على خير الأنام)، فى فصل عقده لمعنى الذرية : فالذرية

الأولاد وأولاد أولادهم، وهل يدخل فيها أولاد البنات، فيه قولان للعلماء هما روايتان عن أحمد، أحدهما يدخلون وهو مذهب الشافعي، والثانى لا يدخلون وهو مذهب أبى حنيفة، واحتج من قال بدخولهم بأن المسلمين يجمعون على دخول أولاد فاطمة عليها السلام فى ذرية النبى صلى الله عليه وسلم، المطلوب لهم من الصلاة؛ لأن أحدًا من بناته لم يعقب غيرها.

ثانيا : قال الله سبحانه وتعالى : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنًا إن الله غفور شكور﴾.

١ - يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿لا أسألكم عليه أجرا﴾[1] أى قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جعلا ﴿إلا المودّة فى القربى﴾

قال الزجاج : (إلا المودّة)، استثناء ليس من الأول أى إلاّ أن

---

(١) يقول الشوكانى فى تفسيره : إن المعنى «لا أسألكم أجرًا قط، ولكن أسألكم المودة فى القربى التى بينى وبينكم. ارقبونى فيها ولا تعجلوا إلىّ ودعونى والناس».

وعن أبى الديلم، قال : لما جىء بعلى بن الحسين رضى الله عنهما أسيرًا فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة، فقال علىّ بن الحسين رضى الله عنهما : أقرأت القرآن؟ قال : نعم، قال : أقرأت آل حم، قال : قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال : ما قرأت قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى؟ قال : وإنكم لأنتم هم؟ قال : نعم.

تودّون لقرابتى فتحفظونى - والخطاب لقريش خاصة - قاله ابن عباس وأبو مالك والشعبى وغيرهم.

قال الشعبى : أكثر الناس علينا فى هذه الآية، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها - فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أوسط الناس فى قريش فليس بطن من بطونهم إلاّ وقد ولده، فقال الله له : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلاّ المودّة فى القربى﴾ إلاّ أن تودونى فى قرابتى منكم، أى تراعوا ما بينى وبينكم فتصدقونى - و(القربى) ها هنا قرابة الرحم، كأنه قال : اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوّة.

قال عكرمة : وكانت قريش تصل أرحامها فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قطعته، فقال : «صلونى كما كنتم تفعلون»، فالمعنى على هذا : قل لا أسألكم عليه أجرًا، لكن أذكِركم قرابتى على استثناء ليس من الأول - ذكره النحاس.

وفى البخارى عن طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿إلاّ المودّة فى القربى﴾ فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد - فقال ابن عباس : عجلت! إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلاّ كان له فيهم قرابة فقال : «إلا أن تصلوا ما بينكم من القرابة» فهذا قول - وقيل : القربى قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم، أى لا أسألكم أجرًا إلاّ أن تودّوا

قرابتى وأهل بيتى كما أمر بإعظامهم ذوى القربى. وهذا قول على ابن حسين وعمرو بن شعيب والسدى، وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس، لما أنزل الله عز وجل ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلاّ المودّة فى القربى﴾ - قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين نودّهم ؟ قال : « علىّ وفاطمة وأبناؤهما ».

ويدل عليه أيضًا، ما روى عن علىّ رضى الله عنه قال : شكوت إلى النبى صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى فقال : « أما ترضى أن تكون رابع أربعة أوّل من يدخل الجنة، أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيمانا وشمائلنا وذريتنا خلف أزواجنا ».

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتى وآذانى فى عترتى، ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا، إذا لقينى يوم القيامة ».

وقال الحسن وقتادة : المعنى إلاّ أن يتودّدوا إلى الله عز وجل ويتقربوا إليه بطاعة. ف « القربى » على هذا بمعنى القربة - يقال : قربة وقربى بمعنى كالزلفة والزلفى.

وروى فزعة بن سويد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم : « قل لا أسألكم على

ما أتيتكم به أجرًا إلّا أن تَوادّوا وتقربوا إليه بالطاعة».

وروى منصور وعوف عن الحسن ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودة فى القربى﴾ قال: يتودّدون إلى الله عز وجل ويتقربون منه بطاعته.

وقال قوم: الآية منسوخة، وإنما نزلت بمكة، وكان المشركون يؤذون النبي عليه السلام، فنزلت هذه الآية وأمرهم الله بمودة نبيه صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه، فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قال ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلّا على رب العالمين﴾، فأنزل الله تعالى: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلّا على الله﴾ فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ وقوله: ﴿أم تسألهم خرجًا فخراج ربك خير﴾ وقوله: ﴿أم تسألهم أجرًا فهم من مغرم مثقلون﴾.

قاله الضحاك والحسين بن الفضل، ورواه جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال الثعلبي: وليس بالقوى، وكفى قبحًا بقول من يقول إن التقرب إلى الله بطاعته ومودّة نبيه صلى الله عليه وسلم وأهل بيته منسوخ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من مات على حب آل محمد مات شهيدًا، ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوار قبره الملائكة والرحمة، ومن مات على بغض آل

محمد جاء يوم القيامة مكتوبًا بين عينيه آيس اليوم من رحمة الله، ومن مات على بغض آل محمد لم يرح رائحة الجنة، ومن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له فى شفاعتى». والزمخشرى فى تفسيره يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات على حب آل محمد مات مؤمنًا مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنّة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرًا، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة». قال النحاس: ومذهب عكرمة ليست بمنسوخة، قال: كانوا يصلون أرحامهم، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم، قطعوه فقال: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلاّ أن تودّونى وتحفظونى لقرابتى ولا تكذبونى»، قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس فى البخارى والشعبى عنه بعينه، وعليه لا نسخ. قال النحاس: وقول الحسن حسن، ويدل على صحته الحديث المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا أسألكم على ما أنبئكم به من البينات والهدى أجرًا، إلاّ أن توادّوا الله عز وجل، وأن تتقربوا إليه بطاعته»، فهذا المبين عن الله عز وجل قد قال هذا، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم

قبله : (إن أجرى إلاّ على الله).

وقيل فى سبب نزول الآية عن الحسن رضى الله عنه : نزلت حين تفاخرت الأنصار والمهاجرون، فقالت الأنصار : نحن فعلنا، وفخرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن ابن عباس قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا فخطب فقال للأنصار : «ألم تكونوا أذلاء فأعزكم الله بى، ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله لى، ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بى ألا تردّون علي» فقالوا : بم نجيبك؟ قال : «تقولون ألم يطردك قومك فآويناك، ألم يكذبك قومك فصدقناك» فعدد عليهم، قال : فجثوا على ركبهم فقالوا : أنفسنا وأموالنا لك. فنزلت ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلاّ المودّة فى القربى﴾ وقال قتادة : قال المشركون : لعل محمدًا فيما يتعاطاه يطلب أجرًا، فنزلت هذه الآية ليحثهم على مودّته ومودّة أقربائه. قال الثعلبى : وهذا أشبه بالآية لأن السورة مكية، قوله تعالى : ﴿ومن يقترف حسنة﴾ أى يكتسب.

وقال ابن عباس : (ومن يقترف حسنة) قال المودّة لآل محمد صلى الله عليه وسلم (نزد له فيها حسنا) أى نضاعف له الحسنة بعشر فصاعدًا ﴿إن الله غفور شكور﴾.

قال قتادة : (غفور) للذنوب، (شكور) للحسنات، وقال

السدى : (غفور) لذنوب آل محمد عليه السلام، (شكور) لحسناتهم.

وقال الحسن بن الفضل، ورواه ابن جرير عن الضحاك، أن الآية نزلت بمكة، وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرهم الله بمودته، فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، فأنزل الله عليه. ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلاّ على رب العالمين﴾. وأنزل عليه ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلاّ على الله﴾.

ويشير لتلك الآية الكريمة سيدى محيى الدين بن عربى فى قوله :

أرى حب أهل البيت عندى فريضة   على رغم أهل البعد يورثنى القربى
فما اختار خيرُ الخلقِ منّا جزاءه   على هديه إلاّ المودة فى القربى

ويشير الإمام الشافعى إلى مضمون الآية الكريمة فيقول :

يا أهل بيت رسول الله حبكم   فرض من الله فى القرآن أنزله

ويقول الشيخ شمس الدين بن العربى :

رأيت ولائى آل طه فريضة   على رغم أهل البعد يورثنى القربى
فما طلب المبعوث أجرًا على الهدى   بتبليغه إلاّ المودة فى القربى

وروى البزار والطبرانى أن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما خطب يومًا فقال : «من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن ابن محمد صلى الله عليه وسلم، أنا ابن البشير، أنا ابن

النذير، أنا ابن آل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كل مسلم. وأنزل فيهم: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودّة فى القربى، **ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنًا﴾، فاقتراف الحسنات مودّتنا** أهل البيت».

وأفاد الفخر الرازى ما نصّه: وإذا ثبت هذا يعنى أنها نزلت فى علىّ، وفاطمة وابنيها، وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، وتدل عليه عدة وجوه.

(أ) قوله تعالى ﴿إلّا المودة فى القربى﴾ ووجه الاستدلال به أن آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يئول أمرهم إليه، فكل من كان من أمرهم إليه وأشد وأكمل كانوا هم «الآل»، ولا شك أن فاطمة وعليًّا والحسن والحسين رضى الله عنهم، كان التعلق بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، أشدّ التعلقات فوجب أن يكونوا هم الآل.

(ب) ولاشك أن النبى عليه الصلاة والسلام، كان يحب فاطمة رضى الله عنها، وثبت بالنقل المتواتر عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان يحب عليًّا والحسن والحسين (كما سيرى القارئ فى الفصول القادمة)، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة **مثله لقوله تعالى: ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾، ولقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾، ولقوله: ﴿إن كنتم تحبون الله**

فاتبعونى يحببكم الله﴾ ولقوله سبحانه وتعالى : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾.

(ج) أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فى الصلاة، فإن ملايين المسلمين فى كل العصور والأزمان يصلّون على النبى وآله فى صلواتهم فى أثناء الليل والنهار.

أليس كل مسلم كان أو سيكون يختم صلاته قائلاً : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ».

وهذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الآل فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، وسنزيد القارئ تفصيلاً فى الفصول القادمة إن شاء الله.

وأخيرًا - فقد روى أبو نعيم بسنده عن جابر - قال : « جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اعرض على الإسلام فقال : « تشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، قال : تسألنى عليه أجرًا؟ قال : لا، إلّا المودة فى القربى، قال : قرباى أو قرباك؟ قال : قرباى. قال : هات أبايعك - فعلى من لا يحبك، ولا يحب قرباك لعنة الله، قال صلى الله عليه وسلم : آمين.

السنة وأهل البيت

١ - فى فضل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : توفى لصفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ابن، فبكت، عليه، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تبكين يا عمة من توفى له ولد فى الإسلام كان له بيت فى الجنة يسكنه» فلما خرجت لقيها رجل، فقال لها : إن قرابة محمد لن تغنى عنك من الله شيئًا، فبكت فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوتها، ففزع من ذلك فخرج، وكان صلى الله عليه وسلم مكرمًا لها يبرّها ويحبها، فقال لها : يا عمة، تبكين وقد قلت لك ما قلت؟ قالت : ليس ذلك أبكانى وأخبرته بما قال الرجل، فغضب صلى الله عليه وسلم، وقال : «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتى لا تنفع إن كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى وإن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة».

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «فتزوجت أم كلثوم لما سمعت من رسول الله صلى عليه وسلم يومئذ، وأحببت أن يكون بينى وبينه نسب وسبب»[١].

(١) لما خطب عمر بن الخطاب لنفسه أم كلثوم بنت فاطمة من أبيها علىّ =

ومن مزيد فضلهم أن الله قد وكل بعض الملائكة بمعونتهم - وكما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن أبا ذر كان ينادى عليًّا، فرأى رحا تطحن فى بيته، وليس معها أحد فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: «يا أبا ذر أما علمت أن لله ملائكة سياحين فى الأرض قد وكلوا بمعونة آل محمد صلى الله عليه وسلم».

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال:

كان لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم خادم تخدمهم يقال لها بريرة، فلقيها رجل، فقال لها: يا بريرة غطى شفيعاتك[1]، فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم، لن يغنى عنك من الله شيئًا، قالت: فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم، فخرج يجر رداءه، وكنا معشر الأنصار نعرف غضبه بجر ردائه وحمرة وجنتيه، فأخذنا السلاح ثم أتيناه فقلنا: يا رسول الله، مرنا بما شئت، والذى بعثك بالحق نبيًّا لو أمرتنا بآبائنا وأمهاتنا وأولادنا لمضينا لقولك فيهم، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

= ابن أبى طالب فاعتل سيدنا علىّ بصغرها وبأنه حابسها لولد أخيه جعفر فألح عليه عمر ثم صعد المنبر، فقال: أيها الناس، والله ما حملنى على الإلحاح على علىّ فى ابنته إلا أنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة، إلا سببى ونسبى وصهرى.

(١) شفيعة: ذؤابة

«من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله.

قال: نعم، ولكن من أنا؟

قلنا: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف صلى الله عليه وسلم.

قال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من ينفض التراب عن رأسه ولا فخر، وأول داخل الجنة ولا فخر، وصاحب لواء الحمد ولا فخر، وفى ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله ولا فخر، ما بال أقوام يزعمون أن رحمى لا ينفع، بل تنفع حتى تبلغ حكم وحاء[٢] إنى لأشفع فأشفع حتى أن من أشفع له ليشفع فيشفع حتى أن إبليس ليتطاول طمعًا فى الشفاعة»[٣].

وصية الرسول صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته:

روى جابر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بعرفات وعلىّ تجاهه: «ادن منى يا علىّ، خلقت أنا وأنت من شجرة أنا أصلها وأنت فرعها والحسن والحسين أغصانها فمن تعلق بغصن منها أدخله الله الجنة».

وعن أبى بكر الصديق أنه صلى الله عليه وسلم قال: «يأيها الناس

---

(٢) هم إحدى قبيلتين من جن - وقيل هما حيان من الجن من وراء رمل يبرين

(٣) أخرجه ابن البحترى.

ارقبوا محمدا فى أهل بيته» أى احفظوف فيهم فلا تؤذوهم.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم خيركم لأهلى من بعدى».

وأخرج ابن سعد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «استوصوا بأهل بيتى خيرًا فإنى أخاصمكم عنهم غدًا، ومن أكن خصيمه أخصمه الله ومن أخصمه الله أدخله النار».

أهل البيت مكان الرأس من الجسد:

إن الواجب على المسلمين أن يجعلوا أهل بيت نبيهم مكان الرأس من الجسد ومكان العينين من الرأس، فيتمسكوا بأهدافهم ويأخذوا بأفعالهم، وأقوالهم، ولو أنهم حققوا ذلك لكانوا سادات الأمم وهداة الشعوب، ولكنهم ناصبوهم العداء، وأخروهم عن مراتبهم وأزالوهم عن مكانتهم، فأصيبت الأمة بالنكسات وحفت بها الخطوب والأخطار.

وعن أبى ذر: «اجعلوا أهل بيتى منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس ولا تهتدى الرأس إلاّ بالعينين».

وصح أن بنت أبى لهب لما هاجرت إلى المدينة، قيل لها: لن تغنى عنك هجرتك أنت بنت حطب النار - فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فاشتدّ غضبه، ثم قال: «ما بال أقوام يؤذون

فى بيتى وذوى رحمى ألا من آذى نسبي وذوى رحمى، فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله ».

أساس الإسلام حب أهل البيت :

مما لا شك فيه أن المسلمين مسئولون أمام الله عن مودة أهل البيت وعن حبهم ومن أظهر ألوان الحب الأخذ بأقوالهم والاقتداء بهم فى جميع المجالات.

أخرج البخارى فى تاريخه عن الحسن بن علىّ عليهما السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لكل شىء أساس وأساس الإسلام حب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب أهل بيته ».

وأخرج الديلمى عن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أثبتكم على الصراط أشدّكم حبًّا لأهل بيتى وأصحابى ».

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه وعن محبته أهل البيت ».

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدبوا أولادكم على

ثلاث خصال حب نبيكم وحب أهل بيته، وعلى قراءة القرآن، فإن حملة القرآن فى ظل من أنبيائه وأصفيائه ».

وأخرج الديلمى عن علىّ عليه السلام، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة، المكرم لذريتى والقاضى لهم الحوائج والساعى لهم فى أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه ».

الاقتداء بأهل البيت :

قال صلى الله عليه وسلم : « من سرَّه أن يحيا حياتى، ويموت مماتى، ويسكن جنة عدن غرسها ربى، فليوال عليًّا من بعدى، وليوال وليه، وليقتد بأهل بيتى من بعدى فإنهم عترتى خلقوا من طينتى ورزقوا فهمى وعلمى، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتى، القاطعين فيهم صلتى، لا أنالهم الله شفاعتى ».

أهل البيت لا يقاس أحد بهم :

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد ».

الحث على حب أهل البيت والزجر عن بغضهم :

أشاد القرآن الكريم بفضل أهل البيت، كما احتفى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرنهم بمحكم الكتاب، ونطق كتاب الله

العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بفضل أهل البيت وسموّ مكانهم عند الله فواجب كل مسلم التفانى فى حب أهل البيت.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا بنى عبد المطلب إنى سألت الله لكم ثلاثًا: أن يثبت قائمكم، وأن يهدى ضالتكم، وأن يعلم جاهلكم، وسألت الله أن يجعلكم جوداء نجداء رحماء فلو أن رجلا صف بين الركن والمقام فصلى وصام، ثم لقى الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار».

وبسنده عن أبى عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبونى لحب الله، وأحبوا أهل بيتى لحبى».

وبسنده عن أبى سعيد الخدرى، وصححه على شرط مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلاّ أدخله الله النار، وفى رواية: إلاّ أكبّه الله فى النار».

وعنه أيضًا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «اشتد غضب الله على من آذانى فى عترتى».

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : «لا يحبنا أهل البيت إلاّ مؤمن تق، ولا يبغضنا إلاّ منافق شق».

وعن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أبغض أهل البيت فهو منافق».

وعن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اللهم ارزق من أبغضنى وأهل بيتى كثرة المال والعيال[1]».

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده، لا تفارق روح جسد صاحبها حتى يأكل من ثمر الجنة أو من شجر الزقوم، وحتى يرى ملك الموت ويرانى ويرى عليًّا وفاطمة والحسن والحسين، فإن كان يحبنا قلت : يا ملك الموت ارفق به فإنه كان يحبنى وأهل بيتى، وإن كان يبغضنى ويبغض أهل بيتى قلت : يا ملك الموت شدّد عليه فإنه كان يبغضنى ويبغض أهل بيتى، لا يحبنا إلاّ مؤمن، ولا يبغضنا إلا منافق شق».

وأخرج الطبرانى عن الحسن بن علىّ عليهما السلام أنه قال لمعاوية ابن خديج : يامعاوية بن خديج : إياك وبغضنا، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا يبغضنا أحد، ولا يحسدنا أحد

---

(١) قال ابن حجر : كفاهم أن يكثر مالهم فيطول حسابهم، وأن تكثر عيالهم فتكثر شياطينهم.

إلاّ زيل يوم القيامة عن الحوض بسياط من نار».

وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول : لو كان لى مدخل فى العصية مع قتلة الحسين بن علىّ وخيرت بين الجنة والنار لاخترت دخول النار حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقع بصره علىّ فى الجنة.

ولما ضرب جعفر بن سليمان مالكًا رضى الله عنه، غشى على مالك فدخل عليه الناس، فلما أفاق قال لهم : أشهدكم أنى قد جعلت ضاربى فى حل، فقيل : لم؟ فقال : خفت أن أموت فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستحى أن يدخل أحد من آله النار بسببى، فلما تولى المنصور طلب أن يقتص له منه، فقال الإمام مالك رضى الله عنه : أعوذ بالله، والله ما ارتفع منها سوط عن جسمى إلاّ وقد جعلته فى حل منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولأبى حسن بن جبير، حمد الله :

وحب النبى المصطفى وابن عمه ... علىٍّ وسبطيه وفاطمة الزهرا
هُمُ أهل بيت أذهب الرجس عنهم ... وأطلعهم أفق الهدى أنجمًا زهرا
موالاتهم فرض على كل مسلم ... وحبهم أسنى الذخائر فى الأخرى
وما أنا للصحب الكرام بمبغض ... فإنى أرى البغضاء فى حقهم كفرا

هم جاهدوا فى الله حق جهـاده   وهم نصروا دين الهدى بالظبا نصرا
عليهم سلام الله ما دام ذكرهـم   لدى الملأ الأعلى وأكرم به ذكرا

الرسول أول من يشفع لآل البيت يوم القيامة :

عن ابن عمر، رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] : «أول من أشفع له يوم القيامة من أمتى، أهل بيتى، ثم الأقرب فالأقرب، ثم الأنصار، ثم من آمن بى واتبعنى من أهـل اليمن ثم سائر العرب، ثم الأعاجم».

وفى خبر عنه صلى الله عليه وسلم : «أربعة أنا لهم شـفيع يـوم القيامة المكرم لذريتى، والقاضى لهـم حـوائجهم، والسـاعى لهـم فى أمورهم، عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه».

وأخرج الخطيب فى تاريخه عن علىّ عليـه السـلام قـال : قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «شفاعتى لأمتى مـن أحـب أهـل بيتى».

وأخرج الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول

(١) ولا يتنافى بين هذا وبين ما رواه البزار والطبرانى وغيرهما «أول من أشفع له مـن أمتى أهل المدينة. ثم أهل مكة، ثم أهل الطائف، فإن هذا تـرتيب مـن حيـث البلـدان. وذاك من حيث القبائل، فيحتمل أن المراد البداءة فى قـريش بأهل المدينـة، ثم مكة، ثم الطائف، وكذا فى الأنصار من بعدهم.

الله صلى الله عليه وسلم : «أول من أشفع لـه مـن أمـتى أهـل بيتى».

أهل البيت مثل سفينة نوح :

حديث السفينة وباب حطة، وهو قوله صلى الله عليـه وسلم : مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تـأخر عنهـا هلك، أو من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها غرق، أو من دخلهـا نجا ومن تخلف عنها هلك.

وقال ابن حجر فى الصواعق : جاء مـن طـرق عـديدة يقـوى بعضها بعضًا : إنما مثل أهل بيتى فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا. وفى رواية مسلم : ومن تخلف عنها غـرق. وفى روايـة : هلك. وإنما مثل أهل بيتى فيكم مثل باب حطة فى بنى إسرائيل من دخله غفر له. وفى رواية : غفر له الذنوب.

وروى الحاكم فى المستدرك بسنده عـن حنش الـكنانى : سمعـت أبا ذر يقول وهو آخذ باب الكعبة : من عـرفنى فـأنا مـن عـرفتم، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر سمعـت رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم يقول : «مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومـن تخلف عنها غرق».

وتمثيلهم بسفينة نوح صريح فى وجوب اتباعهم والاقتداء بأقوالهم

وأفعالهم، وحرمة اتباع من خالفهم، وأى عبارة أبلغ فى الدلالة على ذلك من قوله : من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك أو غرق، فكما أن كل من ركب مع نوح فى سفينته نجا من الغرق، ومن لم يركب غرق وهلك، فكذلك كل من اتبع أهل البيت أصاب الحق ونجا من سخط الله وفاز برضوانه، ومن خالفهم هلك ووقع فى سخط الله وعذابه، وذلك دليل عصمتهم وإلاّ لما كان كل متبع لهم ناجيا وكل مخالف لهم هالكا، وهذا عام مخصوص كما سيجىء فى حديث الثقلين. وليس المراد به إلاّ أئمة أهل البيت الذين وقع الاتفاق على تفضيلهم، واشتهروا بالعلم والفضل والزهد والورع والعبادة، واتفقت الأمة على عدم عصمة غيرهم، وغير المعصوم لا يكون متبعه ناجيًا، ومخالفه هالكًا على كل حال، ولا يقصر عنه فى الدلالة خبر تسميتهم بباب حطة الدال على أن النجاة فى اتباعهم والخلاص من الذنوب والمعاصى بالأخذ بطريقتهم.

وفى بيان هذا الحديث أيضًا يقول الإمام شرف الدين : «وأنت تعلم أن المراد من تشبيههم عليهم السلام بسفينة نوح، أن من لجأ إليهم فى الدين فأخذ فروعه وأصوله عن أئمتهم الميامين نجا من عذاب النار، ومن تخلف عنهم كان كمن آوى يوم الطوفان إلى جبل ليعصمه من أمر الله غير أن ذاك غرق فى الماء وهذا فى الحميم والعياذ بالله.

والوجه فى تشبيههم عليهم السلام بباب حطة، هو أن الله

تعالى جعل ذلك الباب مظهرًا من مظاهر التواضع لجلاله والخنوع لحكمه، وبهذا كان سببًا للمغفرة.

وهذا وجه الشبه، وقد حاول ابن حجر إذ قال بعد أن أورد هذه الأحاديث وغيرها من أمثالها.

« ووجه تشبيههم بالسفينة أن من أحبهم وعظمهم شكرًا لنعمة مشرفهم، وأخذ بهدى علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلف عن ذلك غرق فى بحر كفر النعم وهلك فى مفاوز الطغيان » إلى أن قال : « وبباب حطة - يعنى ووجه تشبيههم بباب حطة - أن الله جعل دخول ذلك الباب الذى هو باب أريحا أو بيت المقدس مع التواضع والاستغفار سببًا للمغفرة، وجعل لهذه الأمة مودة أهل البيت سببًا لها ».

وجوب محبة أهل البيت وإكرامهم وتوقيرهم والتمسك بهم :

حب آل البيت فرض على كل مؤمن؛ لأنهم شجرة النبوّة، ومحطة الرسالة، ومنبع الرحمة، ومعدن العلم، وهم ينابيع الحكمة، فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، ناصرهم ومحبهم ينتظر رحمة الله ونفحاته، وعدوهم ومبغضهم يستقبل نقمة الله وسطواته، بهم هدايتنا من الظلماء، وهم موضع سر المصطفى صلى الله عليه وسلم، وملجأ أمره ومؤمل كلمه، فهم أساس الدين، وعماد اليقين.

وإكرام أهل البيت واجب تعظيماً للرسول عليه الصلاة والسلام، وعن أنس قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم فى المسجد إذ أقبل عليٌّ فسلم، ثم وقف، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فى وجوه الصحابة أيهم يفسح له، وكان أبو بكر رضى الله عنه عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزحزح عن مجلسه قال: ها هنا يا أبا الحسن، فجلس بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أبى بكر، فعرف البشر فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: «يا أبا بكر، إنما يعرف الفضل من الناس ذوو الفضل».

وفى المناقب عن هشام بن حسان، قال: خطب الحسن بن عليّ رضى الله عنه بعد بيعة الناس له بالأمر فقال: «نحن حزب الله الغالبون، ونحن عترة رسوله الأقربون، ونحن أهل بيته الطيبون، ونحن أحد الثقلين اللذين خلفهما جدى صلى الله عليه وسلم فى أمته، ونحن ثانى كتاب الله، فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فالمعول علينا فى تفسيره، ولا تظنى تأويله، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إذا كانت بطاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله مقرونة، قال جل شأنه: ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾.

وعنه أيضا قال: «نحن أئمة المسلمين وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغر المحجلين، وموالى المسلمين. ونحن أمان

لأهل الأرض، كما أن النجوم أمان لأهل السماء، بنا ينزل الغيث، وتنشر الرحمة وتخرج بركات الأرض، ولولا ما على الأرض منا لانساخت بأهلها».

ومن خطبة للإمام عليّ كرم الله وجهه يذكر فيها أهل البيت:

«هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، هم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ووعاته قليل».

ومن خطبه رضي الله عنه:

«فأين تذهبون وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة، والآيات واضحة والمنابر منصوبة، فأين يتاه بكم وكيف تعمهون، وبينكم عترة نبيكم وهم ألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن.

أيها الناس، خذوها عن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم أنه يموت من مات منا وليس بميت، ويبلى من بلى منا وليس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون واعذروا من لا حجة له عليكم».

ويقول رضى الله عنه :

« انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فإنهم يخرجون بكم إلى هدى، ولن يعيدوكم فى ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا ولا تستبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا ».

وخطب رضى الله عنه بالمدينة بعد بيعة الناس فقال :

« ألا إن أبرار عترتى وأطايب أرومتى أحلم الناس صغارًا وأعلمهم كبارًا، ألا وإنّا أهل بيت من علم الله علْمنا وبحكم الله حكمنا، ومن قول الصادق الصدوق صلى الله عليه وسلم سمتنا، فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرهم، وإن لم تفعلوا يهلككم الله، ومعنا راية الحق من تبعها لحق، ومن تأخر عنها محق، ألا وإن بنا يدرك كل مؤمن ثواب عمله، وبنا تخلع ربقة الذل من أعناقكم، وبنا فتح الله تعالى وبنا يختم ».

ويقول الإمام الشافعى فى حب أهل البيت :

يا آل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكمو من عظيم الفخر أنكمو من لم يصل عليكم لا صلاة له

ولبعضهم :

هم العروة الوثقى لمعتصم بها مناقبهم جاءت بوحى وإنزال
مناقب فى الشورى وفى هل أتى أتت وفى سورة الأحزابْ يعرفها التالى

وهم آل بيت المصطفى فرضاهُم على الناس مفروض بحكم وأسجال

ويقول البوصيرى :

وهل حبكم للناس إلاّ عقيدة على أسها فى الله تبنى القواعد
وإن اعتقادًا خاليا من محبة وردكمُ آل النبى لفاسد

ومن قصيدة للصاحب بن عباد :

حب النبى وأهل البيت معتمدى إذا الخطوب أساءت رأيها فينا
يارب سهِّل زيارتى مشاهدهم فإن روحى تهوى ذلك الطينا
يارب صيِّر حياتى فى محبتهم ومحشرى معهم آمين آمينا

ويقول الفرزدق فى قصيدته التى مدح بها زين العابدين علىّ بن الحسين رضى الله عنهما :

من معشر حبهم دين، وبغضهمو كفر، وقربهمو منجى ومعتصم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهمو فى كل بدء ومختوم به الكلم
إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتهم أوقيل : من خير أهل الأرض قيل هم
يستدفع الشر والبلوى بحبهمو ويسترب به الإحسان والنعم

ويقول الشيخ أحمد الحلوانى الكبير :

هم الدين والدنيا لعمرى همو همو فقل فيهم ماشئت لاتبرهن نكرا
بدور سمت عن شمس أكرم مرسل أنارو دياجى الكون بالطلعة الغرا
وبالبر والتقوى وبالحلم والندى وبالعلم والفتوى وبالذكر والذكرى

ويقول دعبل الخزاعى :

ملامك فى أهل النبى فإنهم ... أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى

تخيرتهم رشدًا لأمرى فإنهم ... على كل حال خيرة الخيرات

فيارب زدنى من يقينى بصيرة ... وزد حبهم يارب فى حسناتى

ويقول الشاعر فى مدح أهل البيت :

لآل البيت عز لا يزول ... وفضل لا تحيط به العقول

وإجلال ومجد قد تسامى ... وقدر ما لغايته وصول

وفى التنزيل بالتطهير خصوا ... ومدحتهم بها شهد الرسول

لهم عزم وسلطنة وجاه ... ودام لهم من الله القبول

سيوف فى الأعادى فاتكات ... وسطوتهم لها رعب مهول

بدور الدين بهم قد تجلت ... تكاد الشمس من خجل تزول

زكوا أصلا بنسبتهم ولكن ... يطيب الفرع ما طابت أصول

وكيف القول فى قوم أبوهم ... له جبريل فى الدنيا رسول

معاذ الله أن أخشى نكالا ... ولى فى حبهم باع طويل

حديث الثقلين[1] :

وعن زيد بن أرقم عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا تارك

---

(١) أحاديث الثقلين التى رواها اجلاء علماء أهل السنة وأكابر محدثيهم فى صحاحهم ومسانيدهم المتعددة. واتفق على روايتها الفريقان. فرواها مسلم والترمذى فى صحيحيهما. والإمام أحمد بن حنبل فى مسنده. والثعلبى فى تفسيره. وابن المغازلى الشافعى فى المناقب. =

فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال : وأهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى »، وسئل زيد : من أهل بيته ؟ قال : هم من حرم الصدقة بعده، هم آل علىّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس.

وفى رواية لمسلم : فقلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا ؛ لأن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده، وسبق أن بينّا ذلك.

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنى تارك فيكم الثقلين، وفى رواية خليفتين : أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.

= وصاحب الجمع بين الصحاح الستة، والحميدية من أفراد مسلم، والسمعانى فى فضائل الصحابة، وموفق بن أحمد، والطبرانى، وابن حجر فى صواعقه وغيرهم. ورويت من طريق أهل البيت باثنين وثمانين طريقا، والعقد الفريد لابن عبد ربه القرطبى، وذخائر العقبى لأحمد بن عبد الله الطبرى، وتفسير الخازن فى تفسير آية الاعتصام، وتفسير ابن كثير فى آية المودة، وفى تفسير آية التطهير، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، وفى الحلية لأبى نعيم الأصفهانى، وأسد الغابة لابن الأثير، والدر المنثور للسيوطى، ولسان العرب لجمال الدين الأفريقى.

وفى رواية : وإن اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا بما تخلفون فيهما.

وفى رواية أخرى : إنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى : الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.

وفى رواية أخرى : إنى تارك فيكم أمرين لن تضلّوا إن تبعتموهما، وهما كتاب الله، وعترتى أهل بيتى فلا تتقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلى منكم، وقد يكون هذا صريحًا فى خروج النساء من أهل البيت واختصاصهم بعشيرته وعصبه وهو رأينا الذى انتهينا إليه فى ختام هذا البحث، والله أعلم.

وحديث الثقلين من أوثق الأحاديث النبوية، وأكثرها ذيوعًا، وقد اهتم العلماء به اهتمامًا بالغًا لأنه يحمل جانبًا مهمًّا من جوانب العقيدة الإسلامية، كما أنه من أظهر الأدلة التى تستند إليها الشيعة فى حصر الإمامية فى أهل البيت وفى عصمتهم من الأخطاء والأهواء، أن النبى صلى الله عيه وسلم قرنهم بكتاب الله العزيز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا يفترق أحدهما عن الآخر، ومن الطبيعى أن صدور آية مخالفة لأحكام

الدين، تعتبر افتراقًا عن الكتاب العزيز، وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بعدم افتراقهما حتى يردا على الحوض، فدلالته على العصمة ظاهرة جلية، وقد كرر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث فى مواقف كثيرة، لأنه يهدف إلى صيانة الأمة والمحافظة على استقامتها، وعدم انحرافها فى المجالات العقائدية وغيرها، إن تمسكت بأهل البيت ولم تتقدم عليهم، ولم تتأخر عنهم.

ولو كان الخطأ يقع منهم، لما صح الأمر بالتمسك بهم الذى هو عبارة عن جعل أقوالهم وأفعالهم حجة، وفى أن المتمسك بهم لا يضل كما لا يضل المتمسك بالقرآن، ولو وقع منهم الذنب أو الخطأ لكان المتمسك بهم يضل، وأن فى اتباعهم الهدى والنور كما فى القرآن، ولو لم يكونوا معصومين لكان فى اتباعهم الضلال، وفى أنهم حبل ممدود من السماء إلى الأرض كالقرآن، وهو كناية عن أنهم واسطة بين الله تعالى وبين خلقه، وأن أقوالهم عن الله تعالى، ولو لم يكونوا معصومين لم يكونوا كذلك، وفى أنهم لن يفارقوا القرآن، ولن يفارقهم مدة عمر الدنيا ولو أخطئوا أو أذنبوا لفارقوا القرآن وفارقهم، وفى عدم جواز مفارقتهم بأن يتقدم عليهم بجعل نفسه إمامًا لهم، أو يقصر عنهم، ويأتم بغيرهم كما لا يجوز التقدم على القرآن بالإفتاء بغير ما فيه، أو التقصير عنه باتباع أقوال مخالفيه، وفى عدم جواز تعليمهم، ورد أقوالهم، ولو كانوا يجهلون شيئًا لوجب تعليمهم ولم ينه عن ردّ قولهم.

وقد دلّت هذه الأحاديث أيضًا على أن منهم من هذه صفته في كل عصر وزمان، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، وأن اللطيف الخبير أخبره بذلك، وورود الحوض كناية عن انقضاء عمر الدنيا، فلو خلا زمان من أحدهما لم يصدق أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض.

ويتخذ أنصارهم أن أهل البيت هم الأئمة الإثنا عشر وأمهم الزهراء هذا الحديث ليرجحوا رأيهم قائلين : إنه لا يمكن أن يراد بأهل البيت جميع بني هاشم، بل هو من العام المخصوص بمن ثبت اختصاصهم بالفضل، والعلم، والزهد، والعفة، والنزاهة، من أئمة أهل البيت الطاهر وهم الأئمة الإثنا عشر، وأمهم الزهراء البتول.

يدللون على ذلك بالإجماع على عدم عصمة من عداهم، والوجدان أيضًا على خلاف ذلك لأن من عداهم من بني هاشم، تصدر منهم الذنوب، ويجهلون كثيرًا من الأحكام، ولا يمتازون عن غيرهم من الخلق فلا يمكن أن يكونوا هم المجعولين شركاء القرآن في الأمور المذكورة بل يتعين أن يكونوا لا كلهم وليس إلاّ من ذكرنا.

جدّ السيدة نفيسة زعيم أهل البيت

من مكة إلى المدينة :

ونشأت السيدة نفيسة رضى الله عنها نشأة نبوية، فإنها بعد أن درجت بمكة تحوطها العزة والكرامة، استصحبها أبوها وقد أوفت الخامسة من عمرها إلى المدينة المنورة وعاشت معه بداءة وأخذ يلقنها ما تحتاج إليه من أمور دينها ودنياها، وكانت تذهب إلى المسجد النبوى تسمع من شيوخه وتتلق الحديث والفقه من علمائه، وعاشت فى مدرسة أبيها المحمدية تسمع منه تاريخ دينها وتاريخ أسرتها، ومن بين الذين التقت بهم السيدة نفيسة فى المدينة الإمام مالك الذى كان حديث الفقهاء والمسلمين جميعا بكتابه الموطأ، وفقهه الذى انتشر فى كل الأمصار، ووجدت السيدة كريمة الدارين فى هذه الأجواء الرائعة مبتغاها وقرأت الموطأ وناقشت كل القضايا الدينية وبدأت تزداد معرفة كاملة والناس من حولها بما فيهم الإمام معجبون بهذه السيدة الطاهرة يسمعون آراءها فى كل ما يتدارسون من فقه وسيرة وحديث.

إسحاق المؤتمن :

وبلغت كريمة الدارين سنّ الزواج فرغب فيها شباب آل بيت

رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى الحسن وبنى الحسين رضى الله عنهم، كما تهافت على خطبتها الكثير من شباب أشراف قريش، لما عرفوه من خيرها وبرّها ودينها وإيمانها وصلاحها وتقواها وما نشأت عليه من عبادة ربها وإقبالها على طلب العلم حتى ضربت فيه بسهم وافر، إلى ماحباها به الله عز وجل من حسن بارع وجمال رائع، وما امتازت به من سرى الأخلاق وكريم المناقب وحميد الشمائل، فقد برأها الله من معدن التقى ونبيل الشيم، فكان أبوها يأبى عليهم إجابة طلبهم ويردّهم ردًّا جميلا، إلى أن أتاه إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق رضى الله عنهما، وكانت دار الحسن قبالة دار جعفر الصادق، فخطبها من أبيها فلم يرد عليه جوابًا، فقام إسحاق من عند الحسن، وفى نفسه ما فيها، وذهب توا إلى المسجد النبوى ودخل الحجرة الشريفة، ووقف تجاه القبر فى خشوع وإجلال.

فقال: يا رسول الله، إنى خطبت نفيسة بنت الحسن من أبيها فلم يرد علىّ جوابًا، وإنى لم أخطبها إلاّ لخيرها ودينها وعبادتها.

ثم انصرف، وقد انشرح صدره واطمأنت نفسه: ففى تلك الليلة رأى أبوها الحسن جدّه المصطفى صلى الله عليه وسلم فى النوم، وهو يقول له: «ياحسن زوّج نفيسة من إسحاق المؤتمن» فما أفاق من نومه حتى بعث إلى إسحاق يستدعيه إليه، فسارع إليه وما إن جلس بين يدى الحسن حتى أخبره برؤياه، وما لبث أن عقد له

على ابنته فى حفل جمع جمهرة من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجماعة من أشراف قريش، وكان ذلك فى سنة إحدى وستين ومائة، وبعد أن جهزها أبوها وجليت لزوجها، بنى عليها فى دار أبيه جعفر الصادق بالمدينة وهى الدار التى كان يسق فيها الماء الذى تصدق به جعفر رضى الله عنه، وكانت تلك الدار قبلاً لحارثة بن النعمان الأنصارى الخزرجى. من بنى النجار، وكان من فضلاء صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قال صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة فسمعت قراءة، فقلت : من هذا ؟ فقيل : حارثة بن النعمان، فقال صلى الله عليه وسلم : كذلكم البر، وكان بَرًّا بأمه، وكان قد ذهب بصره فاتخذ خيطًا فى مصلّاه إلى باب حجرته، فكان إذا جاءه مسكين أخذ من مكتله شيئًا ثم أخذ بطرف الخيط حتى يناوله، فكان أهله يقولون له نحن نكفيك فيقول : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «مناولة المسكين تقى مصارع السوء»، وكان قبالة تلك الدار فى الغرب دار الحسن بن زيد، وهو أطم كان الحسن قد ابتاعه فخاصمه فيه أبو عوف النجارى، فهدمه حسن فجعله دارًا مشيدة البنيان عالية الأركان تحوطها الكرامة ويرفرف عليها الشرف والجلالة.

وبزواج السيد إسحاق من السيدة نفيسة اجتمع فى بيتها نوران، نور الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، فالسيدة نفيسة جدها الإمام الحسن والسيد إسحاق جدّه الإمام الحسين؛ لأن إسحاق

المؤتمن هو ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زيد العابدين ابن أبي الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، وأمه حميدة البربرية وهي أم إخوته موسى والإمام ومحمد وفاطمة الكبرى رضي الله عنهم.

وكان إسحاق من أهل الفضل والاجتهاد والورع والصلاح، روى عنه الكثير من الناس الحديث والآثار، وكان ابن كاسب يعقوب بن حميد بن كاسب المدني، وينسب إلى جده إذا ما حدث عن إسحاق يقول: حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر وناهيك بابن كاسب، فقد كان محدثًا ثقة مأمونًا صادقًا.

قال القاسم بن عبد الله بن مهدي: قلت لأبي مصعب: بمن توصيني بمكة وعمن أكتب؟ فقال: عليك بشيخنا أبي يوسف يعقوب بن حميد، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه، وكان إسحاق وفيًا لإخوته، وكان من الفضل والورع ما لا يختلف فيه اثنان.

وفي عمدة الطالب: وأما إسحاق بن جعفر الصادق، ويكنى أبا محمد ويلقب بالمؤتمن، فقد ولد بالعريض، وهو واد بالمدينة، وكان من أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان محدثًا جليلا وادّعت فيه طائفة من الشيعة الإمامة، وكان سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي رضي الله عنهما إذا ما روى عنه يقول:

حدثنى الثقة الرضا إسحاق بن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين رضى الله عنهم. وهو أقل المعقبين من ولد جعفر الصادق عددًا إذ أعقب ثلاثة رجال: محمدًا والحسن والحسين وتعرف ذريته بالإسحاقيين.

ويقول المقريزى فى خططه: وتزوج بنفيسة رضى الله عنها إسحاق ابن جعفر الصادق رضى الله عنهما، وكان يقال له إسحاق المؤتمن، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين، روى عنه الحديث، وكان ابن كاسب إذا حدث عنه يقول: حدثنى الثقة الرضا إسحاق ابن جعفر، وكان له عقب بمصر منهم بنو الرق وبحلب بنو زهرة.

وولدت نفيسة من إسحاق ولدين هما القاسم وأم كلثوم.

وفى تهذيب التهذيب: إسحاق بن جعفر روى عن كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف، وعبد الله بن جعفر المخزومى، وصالح بن معاوية بن عبد الله بن جعفر وغيرهم، وروى عنه إبراهيم ابن المنذر، ويعقوب بن حميد بن كاسب ويعقوب بن محمد الزهرى وغيرهم.

قدم مصر وهو زوج السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور رضى الله عنهم، وقد ذكر فى لسان الميزان: أنه كان يقال له الحزين لأنه لم ير ضاحكًا.

وفى مشتركات الطوبجى : إنه الممدوح بروايته عن أبيه، وقد مكث بعد وفاة السيدة نفيسة رضى الله عنها زمنا ليس بالكثير، ثم توفى ودفن بمصر، وقيل : إنه رحل وولداه القاسم وأم كلثوم إلى المدينة وتوفى بها وهو الأصح.

نفيسة العلم :

فى بيت كريم وبين أسرة طهرها الله سبحانه وتعالى تطهيرًا وأذهب عنها الرجس، فتحت السيدة كريمة الدارين عينيها، ووعت أذناها كتاب الله العظيم، ولا شك أن الجو الذى كان يحيطها شجعها على ذلك، فأب صالح وأم عابدة، يعبدان الله سبحانه وتعالى ليل نهار، فكان طبيعيا أن تقلدهما، ولعلها سمعت من أبيها تاريخ جديها الإمامين الحسن والحسين، وأمهما الزهراء، وأبيهما أمير المؤمنين، وما اقتبسوا جميعًا من رسول الله من أنوار، وما أخذوا عنه من شتى الفضائل والمكرمات.

ولعل والدها تنبأ لها بأنها سيكون لها شأن عظيم بين الصالحين والصالحات، فقد بدأت فى سن مبكرة فى تلاوة القرآن الكريم بمفردها، ثم عملت على حفظه حتى تم لها ذلك فى خلال سنة واحدة فقط، أما العبادات المفروضة، فقد أثر عنها رضى الله عنها أنها كانت تؤدى الصلوات الخمس بانتظام مع والديها فى المسجد الحرام، وهى فى السادسة من عمرها.

ونشأت كذلك آية من آيات الله تعالى فى قوّة الذاكرة الحافظة، صفاء نفس ونقاء حدس، فكان طبيعيا أن تتجه بكل قواها إلى كتاب الله الكريم، فألمت بتفسيره وتأويله فاستجلت غوامضه وخاضت عبابه.

وأخذت وهى تنمو جسمًا وعقلا وروحًا، تقوم الليل وتصوم النهار وتمعن فى العبادة والدراسة، فاتجهت بكل روحها إلى دراسة حديث جدها، فروت منه عن أبيها وآل بيتها وعلماء عصرها، وأخذت بحظ وافر من الفقه والعلم، ومن هنا جاء اللقب الذى اشتهرت به «نفيسة العلم».

شغفت بحديث جدّها المصطفى عليه الصلاة والسلام، وروت من الحديث والآثار الكثير من أبيها وآل بيتها وعلماء عصرها، وبخاصة الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه بالمدينة، وكان من عادته أن يتصدر مجالس العلم وفى يمينه موطؤه، وحوله العلماء وطلاب العلم وفدوا عليه من سائر الأقطار الإسلامية، ينشر الإمام مالك العلم فى أرجاء المدينة، من أرجائها ينساب إلى آفاق العالم المتعطش له، وكانت أحاديث الإمام مالك علنية، وكانت أصداؤها تصل إلى السيدة نفيسة فتأخذ ما تضيفه إلى ما جاءت به من مكة من سائر علوم القرآن والحديث، وقد سمع عنها الحديث كثير من علماء مصر والراحلين إليها.

وقد كان ابن خلكان يروى أن الإمام الشافعى رضى الله عنه لما دخل مصر حضر إليها وسمع عنها الحديث.

وقالت زينب بنت يحيى المتوج، وهو أخو السيدة نفيسة رضى الله عنهم : «كانت عمتى نفيسة تحفظ القرآن وتفسيره وكانت تقرأ القرآن وتبكى، وتقول : إلهى وسيدى يسّر لى زيارة خليلك إبراهيم عليه السلام» لأنها كانت تعلم أنه أبو الأنبياء، أى أنه أبو أبيها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتم الأنبياء، وأنه له بشارة كما ورد فى الأثر وإذن فهو أبوها وجدّها، وكانت تعرف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : «أنا دعوة إبراهيم عليه السلام حيث يقول : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

وحين بلغت المزار ووقفت بين يدى جدث خليل الله قالت :

«ما إن بلغت المقام الكريم والضريح العظيم، حتى أجهشت بالبكاء، بكاء السرور لتحقيق أمنيتى فى زيارة الخليل، ثم جلست فى خشوع أقرأ من آيات الله ما ورد فى خليل الله».

وقرأت ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرًا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم * ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا

الصلاة فاجعل أفئدة من الناس. تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون * ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء * الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء * رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب * ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد * سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب﴾.

وتقول السيدة كريمة الدارين :

ولما كانت قراءتى فى تدبر وتفكر وخشوع وخضوع، أحسست حينئذ إحساسًا يقرب من المادية أن الخليل أمامى، وحينئذ خفق قلبى وخشع بصرى، وقلت :

« يا جدى الأكبر، جئت إليك بجسدى وروحى، وقد جاءت روحى من قبلى، فهل أحظى برضاك وصالح دعاك، وتوجيهاتك الشريفة لى حتى أتعبد لآخر لحظة فى حياتى »، وحينئذ سمعت صوتًا مجلجلا يقول :

« يا ابنتى يا نفيسة، أبشرى فإنك من الصالحات القانتات، وإنك بإذن الله موفقة، إلاّ أننى أوصيك بأن تقرئى سورة المزمل حيث يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يـٰأيها المزمل * قم الليل إلاّ قليلا نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا * إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا * إن لك فى النهار سبحًا طويلا * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا * رب المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتخذه وكيلا * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلا * وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا . . . . ﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

وتتدبرى معناها، وستعلمين طرق العبادة التى لا مشقة فيها لأن الله لا يكلف نفسًا إلاّ وسعها، وأنت يا ابنتى تتعبدين إلى درجة

الإرهاق الذى يضنى جسدك، ومع ذلك تتحاملين على نفسك وتغرقين فى العبادة.

يا ابنتى اقرئى قول الله تعالى لرسوله الكريم ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار... ﴾ إلى آخر سورة المزمل.

وقد جعل الله العبادة فى الليل اختيارية بعد أن كانت إجبارية لأن الله يعلم أن من عباده من يجاهد فى سبيل الله ويسعى لنيل رزقه، ولا بدّ له من الراحة ليقوم بعمله.

هذا والجهاد عبادة، والسعى فى سبيل الرزق عبادة، وإدارة شئون المنازل للسيدات عبادة، اذكرى ذلك وارحمى نفسك وأعطيها قسطها من الراحة، لتقوى على العبادة من غير إرهاق مؤلم، واعلمى أنك موفقة، وأنك مباركة، وأنك فى الصف الأول بين الصالحين والصالحات وكونى فى جميع خطواتك القدوة الحسنة لغيرك ليقتدى به من أراد الله له الخير والسعادة».

وحينئذ قلت: «يا جدى العظيم، يا جدى الأكبر، سأنفذ هذه التوجيهات، وأرجو من روحك الطاهرة أن تهب روحى صفاء، حتى أبلغ ما أتمناه لنفسى من القرب إلى الله تعالى، حتى ألقاه وهو عنى راض، وهذه هى أمنيتى التى لا أمنية بعدها».

فقال: «يا ابنتى أبشرى فإن الله قد استجاب دعواتك، ولن

أنساك حتى نلتقى فى عالم الروح، فى عالم الخالدين، ثم بين يدى الله رب العالمين يوم تجزى كل نفس ما عملت والعاقبة للمتقين».

وحجت كريمة الدارين هى وزوجها إسحاق المؤتمن، وزارت قبر خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، وكما قلت حجت فى حياتها المباركة ثلاثين مرة أكثرها ماشية على قدميها، وكان القدوة لها فى ذلك جدها الإمام الحسن الذى كان يقول: «إنى لأستحى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته».

وقالت زينب بنت يحيى[1] المتوج: «خدمت عمتى السيدة نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت بليل ولا أفطرت بنهار، إلاّ العيدين وأيام التشريق.

فقلت لها: أما ترفقين بنفسك؟

---

(١) يحيى أخوها دفن بمصر، وليس لأخيها يحيى سوى زينب التى صحبت عمتها طوال حياتها، وقد عافت الدنيا وزهدتها فلم تتزوج، وكان يرى على قبر يحيى نور، قال أبو الذاكر: دخلت إلى قبر يحيى فلم أحسن الأدب فسمعت من قبره من يقول: قال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾.

وليس بمصر من إخوتها سواه ومشهده معروف بإجابة الدعاء، وقد دفنت زينب بنت **يحيى المتوج رضى الله عنهما بجوار قبر عمرو بن العاص رضى الله عنه، وكان أهل مصر يأتون** لزيارة قبرها من كل فج، وكان الظاهر الخليفة الفاطمى يأتى إلى زيارتها ماشيًا، وكان أهل مصر يجيئون إلى قبرها يستسقون وكان النيل قد توقف فاستسق أهل مصر بها وجأروا إلى ربهم فجرى النيل بإذن الله تعالى.

فقالت : «كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لا يقطعهن إلّا الفائزون ؟ ».

وكانت تقول : كانت عمتي تحفظ القرآن وتفسيره، وكانت تقرأ القرآن وتبكي.

وقد سمع منها الحديث وتفسيره والفقه كثير ممن قابلوها، فقد سمع منها بمصر غير الإمام الشافعي جمهور كبير من العلماء كذى النون المصرى، وعبد الله بن الحكم، وولداه محمد وعبد الرحمن، وعبد الرحمن البويطى، والربيعان المرادى والجيزى، وحرملة من أصحاب الإمام الشافعي رضى الله عنهم، وكثيرون غيرهم استفادوا مما أفاضه الله عليها من فيوضات مما سيأتى بيانه بعد قليل، وما روته من أحاديث وآثار وفقه وعلم ومعارف نبوية، فإنها رضى الله عنها من أهل البيت اتقوا الله فعلمهم الله، وأنار قلوبهم بنور عرفانه، فكانوا من حملة العلم وحضنته، ومن ذوى الفقه والدين والمعرفة واليقين.

وكانت السيدة الورعة زاهدة فى دنياها تؤمن بمنهج الزهد وتمارسه، وكان رائدها فى طريق الزهد جدها الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أحاطت بسيرته، وكان مرشدها هو ما قال الرسول وما فعل، وقد مالت بطبعها منذ صغرها إلى حياة بعيدة عن زخرف الحياة وزينتها بالرغم من أن أباها كان أميرًا

للمدينة وكان بلا شك يعيش عيشة رغدة، ولكنها ما كانت تستشرف إلى لذائذ الدنيا وشهواتها.

وفى بيت أبيها نشأت - بالرغم مما يحاط بها من مظاهر الترف - نشأة الزهادة والتقشف، فمثلا كانت قليلة الأكل، ويروى أنها كانت تأكل كل ثلاثة أيام مرة. وكانت لها سلّة معلقة أمام مصلاها، فكانت كلما اشتهت شيئًا وجدته فى السلة.

وتقول زينب بنت يحيى: «كنت أجد عندها ما لا يخطر بخاطرى ولا أعلم من يأتى به فعجبت من ذلك، فقالت يا زينب من استقام مع الله تعالى كان الكون بيده وفى استطاعته».

وكانت تمضى أكثر وقتها فى معبدها أو حرم جدها المصطفى صلى الله عليه وسلم، على أنه يقال إنها رضى الله عنها لم تكن سلبية فى زهدها تقاطع الحياة مقاطعة تامة كما يفعل الزهاد، وإنما كان هجرها للدنيا واقعًا على كل ما يعوقها عن الله وطاعته ومرضاته، ويعوقها عن العمل لآخرتها والتزود لها.

كانت الآخرة وكان الموت نصب عينيها، والدليل على ذلك حفرها قبرها بيدها، وقضاؤها شطرًا من وقتها كل يوم تستلهم منه العظات وتستوحى الصالحات.

وهى بعد ذلك زوجة مخلصة لم يشغلها أى أمر عن مسئوليتها كزوجة، وحتى يفاخر بها المؤتمن الدنيا، ويذكر للناس من حوله أنه

قد وجد فيها نعمة الله عليه، فلم تقصر فى حق لـه أبـدًا، ولم يشغلها أى أمر عن حقوقه وواجباته.

وهى أم ترعى الله فى زوجها وولـدها تغـدق بـالحنان ولـديها أبا القاسم وأم كلثوم، ترعاهما وتؤدبهما حتى يصيرا نمـوذجًا صـالحًا بشرف الانتساب إلى بيت النبوة.

وهى ربة بيت تشرف عليه.

وهى محبة للعلم والمعرفة حبًّا جعلها بحق نفيسة العلم.

وتجتمع بذوى الحاجات من الناس وتستمع إليهم، ولهذا شـاهد مسكنها فى المدينة وفود الزوار من كل بلـد إسـلامى خصـوصًا مـن القادمين فى مواسم الحج والراغبين فى العلم، وقـد كان أكثر هـؤلاء الوفود وأشدهم حرصًا على لقائها من مصر.

وضاقت دارها بالزائرين كما حدث لهـا تمـامًا فى مصر، عنـدما طلبت الرحيل إلى الحجاز عند أهلهـا بسـبب ازدحـام مـنزلها بالقاصدين إليها، كما سيأتى تفصيل ذلك فيما بعد.

فزهد السيدة نفيسة كان إيجابيًّا نـافعًا، كما كان زهـد الـرسول إيجابيًّا مثاليًّا فى إيجابيته.

ويقول الإمام أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه :

١ - ترك الحرام وهو زهد العوام.

٢ - ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص.

٣ - وترك ما يشغل العبد عن الله - وهو زهد العارفين.

وهو زهد السيدة كريمة أهل الدارين شعارها الله أولا، والمجتمع ثانيًا، لله صلاتها ونسكها ولله محياها ولله مماتها.

أخلاقها :

كانت رضى الله عنها وأرضاها، كريمة الخليقة، شريفة الطبع، غراء المكرمات، زهراء المأثرات. فقد صاغها الله من معدن كريم وأنبتها نباتا حسنًا، فجمعت خلال الفتوة والمروءة فكانت معطاءة فيّاحة فيّاضة نفاحة، جمّة المبرات كثيرة الصلات، وهى مع هذا زاهدة متقشفة.

أما ما برأها الله عليه من عزة نفس وحمى أنف، تربأ بنفسها عن مواطن الذل والابتذال، وتتصاون عن الامتهان والهوان، وهى مع هذا لا يذهب بنفسها زهو وكبرياء ولا يخالطها تيه وعجب، بل كانت متواضعة النفس متطامنة الجانب.

سلاسة طبع وسجاحة خلق - وبالإجمال فأخلاقها مقتبسة من أخلاق جدها المصطفى صلى الله عليه وسلم وإنه لعلى خلق عظيم.

وكانت المثل الأعلى فى الوفاء لزوجها على وجه الخصوص، وعرفان حقوقه والقيام بواجباته، وقد ساهمته الإخلاص والود، وقد

عرف فيها هذا الخلق النبيل فكان مثال الطاعة لها فيما تسلكه وتنحيه، فما خالف لها أمرًا، ولا وقف لها فى سبيل رغبة، بل كان يهيئ لها ما تبتغيه، ويسهل لها ما تريده، ولم يبخل عليها بشىء من ماله.

وكانت عطوفة على أسرتها، فها هى تلك بنت أخيها زينب، وقد لمست فى عمتها العطف، فتمادت فى خدماتها ونسيت نفسها فى سبيل عمتها، فلازمتها وأصبحت كظلها، وعافت الزواج لتنفرد بخدمتها وتسهر على راحتها وتقضى لها حاجتها، وما رحلة عمتها نفيسة بنت زيد إلى مصر إلاّ شوقًا لبنت أخيها، وكان برّها لخادمتها جوهرة ومعاملتها لها أحسن معاملة، فأشرب فى قلبها حبها والإخلاص لها إلى ما عرف عنها من إيثار ذويها وبرهم مما جعلها تملك قلوبهم.

وكانت كثيرة الخير والبرّ، تواسى البائسين وتسعف الملهوفين وتفرج كرب المكروبين، وكان لها مال كثير إلى مال زوجها، تحسن من كل أولئك إلى المرضى والمحتاجين والناس عامة، فما كانت تردّ سائلا ولا تمنع مستجديًا، وكانت تتعرف من به حاجة فتقضى حاجته.

سخيّة لكل من يتصل بها، نديّة لكل من يلوذ بها ويحوم حول رحابها.

وهب لها أحد الأمراء مائة ألف درهم وقال : خذى هـذا المال شكرًا لله تعالى لتوبتى، فأخذته وصرتـه صررًا بـين يـديها وفـرقت الصرر عن آخرها، وكان عنـدها بعض النســاء، فقــالت لهــا : يا سيدق، لو تركت لنا شيئًا من هذه الـدراهم لنشـترى بـه شيئًا فنفطر عليه.

فقالت لها: «خذى غزلا غزلته بيدى فبيعيـه بمـا تشـترى بـه طعامًا نفطر عليه» فذهبت المرأة وباعت الغزل وجاءت بمـا أفـطرت به هى وإياها ولم تأخذ من المال شيئاً فهى الجوادة بنت الجواد وهى من قوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وكانت رضى الله عنها عيوفة عزوفة، فما عرف عنها أنها مـدت يدها لمخلوق، وما كانت تأخذ شيئًا مما كان يـأتى إليهـا مـن منـح الأمراء والعظماء بل إنها كانت تبعث به إلى ذوى الحاجات، سـخاء نفس وعزة فطرة، وما كانت تنفــق على نفســها وأفــراد بيتهــا إلاّ ما كان من مالها أو مال زوجها أو ما يأتيها ممـا تغـزله بيـدها، وكانت لا تأكل طعامًا لغير زوجها.

وهذا أمير مصر السرى بن الحكم، فقـد ألـح عليهـا إلحـاحًا شديدًا فى أن تنزل فى دار له نزل عنها لها فبعد لأى وجهد قبلـت أن تنزل فى تلك الدار التى وهبها لها، وقـد سرّه قبـولها وحمـد الله تعالى على ذلك، فهى من آل بيت لا يرضى ذووه أن يكون لأحـد

غير الله تعالى له عليهم نعمة ولا منّة، شممًا وإباءَ نفس.

وهذا هو الأمير الذى بعث إليها بمائة ألف درهم فلم تشأ أن تبيتها أو تدخرها بل وزعتها دون أن تبق لها منها درهمًا.

وكانت السيدة نفيسة رضى الله عنها كثيرة البر والمواساة عطوفة رحيمة تحنو على القوم وتتحد بهم فتؤويهم إلى ظل رحمتها وتمهد لهم مهاد رأفتها.

ولم يكن عطفها على ذوى قرباها بأقل أثرًا من ذلك، فكثيرًا ما نالهم برها وشملهم خيرها. فهذه بنت أخيها السيدة زينب قد لاقت من عمتها من الحنان والرأفة والإحسان ما جعلها تخلص إليها وتتفانى فى خدمتها، وتقوم لها بما تحتاجه من أمورها، فإن عمتها ملكت قلبها ببرها وعطفها حتى وفت لها أربعين سنة تنشط لخدمتها وتسهر على حاجتها دون سأم أو ملل.

وكذلك أخلصت لها خادمتها جوهرة لما لمسته من عطف وحنان، فعاشت فى كنفها مسرورة تفديها بنفسها، وتسارع إلى تلبية ندائها وقضاء حاجتها، وهؤلاء جيرانها وقد عرفوا برها وعطفها، فكانوا يودونها ويثقون بها حتى أولئك الذين كانوا يخالفونها فى دينها، فهذه جارتها اليهودية لم تأمن على وحيدتها إلّا الشريفة السيدة نفيسة بالرغم من وجود جمهرة من اليهود أبناء شيعتها يجاورونها، غير أنها لم تر فيهم أحدا موضع ثقتها، فتودع عنده فلذة كبدها إلى أن

تعود من حمامها، فلم تجد غير تلك الأمينة العطوفة، فتركتها عندها فنالت من بركتها مما سيأتى فى حينه.

فالبر والعطف آيتان محببتان، بهما تملك القلوب وتُؤسر الأفئدة إلى ما رأيناه من إقبال الناس عليها، فوق ما لمسوه من بركاتها، وما عرفوه من نفحاتها.

من بلد الرسول إلى القاهرة:

ولدت السيدة نفيسة بمكة، ثم انتقلت إلى المدينة بصحبة أبيها ولبثت بالمدينة إلى أن روِّعت بحبس المنصور لأبيها من سنة ١٥٦ إلى سنة ١٥٩ حين أخرجه المهدى من حبسه وردّ عليه ماله، واستمرت فى المدينة وعاشت فى ظل أبيها قريرة مسرورة إلى أن تزوجها إسحاق المؤتمن وبنى عليها فى بيت أبيه بالمدينة، فعاشت ردحًا من الزمن، فكانت تتشوق لزيارة قبر أبيها الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم زارت بغوطة دمشق، مقام السيدة زينب بنت أم كلثوم بنت علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنهم، ثم زارت قبر عمتها فاطمة بنت الحسن ابن على رضى الله عنهم إذ أنها مدفونة بمغارة وعند قبرها رخامة مكتوب عليها:

أسكنت من كان فى الأحشاء مسكنه بالرغم منى بين التراب والحجر
أفديك فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الأمة بنت الأنجم الزهر

وزارت قبر فضة جارية جدتها فاطمة الزهراء رضى الله عنها وغير أولئك.

وفى دمشق استقبلها جمهور كبير من العلماء هرعوا للتسليم عليها والتماس دعائها وبركتها، وفى مقدمتهم الشيخ الكبير العارف بالله أبو سليمان الدارانى، وكان رجلا صالحا زاهدًا وله كلام رفيع فى التصوف والوعظ، ومحدث الشام أبو العباس الوليد بن مسلم الدمشقى، وكان إمامًا حافظًا، والإمام أبو بكر الدمشقى مروان بن محمد الطاطرى، وكان صالحا خاشعًا عابدًا، وغير أولئك من علماء الشام ومحدثيه وصلحائه، يرجون منها دعاءها ويلتمسون بركتها ويسمعون عنها ما تحدث به من حديث جدها المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وفى يوم السبت الموافق ٢٦ رمضان ١٩٣ هـ. وصلت السيدة كريمة الدارين إلى مصر قبل أن يقدم إليها الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه بخمس سنين، وكان ذلك فى ولاية الحسن بن البحبلح والى مصر من قبل الرشيد.

وفى العريش استقبل أهل مصر السيدة نفيسة رضى الله عنها أحسن استقبال، فقد أحبها الشعب المصرى قبل قدومها إليه حيث سمع عن أنبائها بالمدينة بلد الرسول عليه الصلاة والسلام، وتلقتها النساء والرجال بالهوادج والخيول مرحبين، يهللون ويكبرون ولم يزالوا

معها إلى أن دخلت مصر، فأنزلها عنده كبير التجار بمصر جمال الدين عبد الله الجصاص، وكان من أهل الصلاح ومن أصحاب المعروف والبر والصدقة والمحبة فى الصالحين والعلماء والسادة الأشراف، فنزلت عنده فى داره معززة مكرمة مبجلة فأقامت بها عدة شهور، والناس يفدون إليها زرافات ووحدانًا من سائر مدن القطر ومن جميع الآفاق، يتلمسون بركتها ويرجون دعاءها، ويرون فى إشراقتها إشراقة بيت النبوّة وعترة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وكانت سيدة من المصريين تسمى بأم هانئ لها دار رحيبة بجهة المراغة والقبر الطويل بالمصاصة أو المنصوصة، فرجت من السيدة نفيسة النزول فى دارها، وكانت امرأة ورعة تقية صالحة، فقبلت السيدة نفيسة وانتقلت إلى تلك الدار، فلم ينقطع عنها الزوار وانهال عليها الناس من كل حدب وصوب من طلاب الحاجات وراغبى الدعوات وملتمسى النفحات والبركات، ويعودون جميعًا وقد استجاب الله دعاءها، وقضى لهم حاجتهم وكشف كروبهم.

وقد كان يجاور بيت أم هانئ رجل من اليهود يقال له أبو السرايا أيوب بن صابر، وله بنت مقعدة، وفى يوم من الأيام توجهت بها أمها إلى السيدة نفيسة واستأذنتها فى بقائها فى حماها إلى أن تعود من حمامها، فتركتها فى ردهة الدار ومضت إلى الحمام حتى إذا جاء وقت صلاة الظهر نهضت السيدة نفيسة لوضوئها والبنت

القعيدة ترقبها وتستشرف إلى ما تصنعه السيدة. وكان ماء الوضوء يجرى فى مجرى بالردهة إلى بئر تحت عتبة الدار، فألهم الله عزّ وجل البنت أن تزحف من مكان قعدتها وتصل إلى ذلك المجرى زاحفة فأخذت فى تقليد السيدة فيما تفعله من غسل وجهها ويديها ورجليها، وما إن غسلت رجليها من ذلك الماء الذى يسيل فى المجرى من فضل وضوء السيدة، حتى كأنما نشطت من عقالها وزال عنها كساحها وشفاها الله سبحانه وتعالى مما بها، فنهضت قائمة مسرعة فى الخروج إلى الدرب خارج الدار تلعب مع لداتها، والسيدة فى شغل عنها بعبادتها وصلاتها فلما حضرت أم البنت إذ بها تجدها وقد زال عنها ما أقعدها وهى قائمة على قدميها كأنه لم يكن بها شيء، فاحتضنتها وهى نشوانة مأخوذة مما رأت من شفاء بنتها وعافيتها، فسألتها عن أمرها فأخبرتها بجلية الأمر، وما كان من غسلها رجليها من فضل ماء الوضوء فبكت الأم بكاء شديدًا، وقالت : لا ريب فى أن دين تلك السيدة الشريفة هو الدين الصحيح، ودخلت على السيدة فى خشوع وخضوع وإجلال واحترام.

ووقفت بين يديها تحييها ثم نطقت بالشهادتين وأخلصت لله رب العالمين، وشكرت للسيدة صنيعها وجميلها وحمدت الله عز وجل على أن أخرجها من الظلمات إلى النور، وأنقذها من الضلال إلى الهدى.

ولما حضر والد البنت وكان من كبار قومه وسراة عشيرته، ورأى وحيدته وقد تعافت فصحّ جسمها واستقام عودها وذهبت شكاتها، فأخذته الأريحية واستطاره الفرح فأخذ يصفق ويرقص ولم يلبث أن نبأته أمها بخبرها وما حاطها من بركة السيدة الشريفة جارتهم، فما إن انتهت زوجه من إخباره حتى رفع بصره ومد يده إلى السماء. وقال : سبحانك ربنا تهدى من تشاء وتضل من تشاء اللهم إنى أشهدك أن هذا الدين هو الدين الصحيح، والدين عند الله الإسلام وأنه لا دين غير الإسلام. ثم توجه من فوره إلى دار السيدة نفيسة واستأذنها فى الدخول فأذنت له فكلمها وهى من وراء حجاب، وبعد أن حياها وشكر لها صنيعها قال : سيدتى ارحمينى وتشفعى لى واشفعى فيمن هو فى ضلال الكفر قد تاه. ومن الدين الحق أبعده الكفر وأقصاه.

فرفعت السيدة نفيسة طرفها إلى السماء، ودعت الله عز وجل له بالهداية.

فما إن انتهت من دعائها حتى نطق أبو السرايا بالشهادتين، وسرى الخبر فى تلك الجهة فأسلم أهلها، وكانوا أكثر من سبعين بيتًا من اليهود، ثم استأذن أبو السرايا من السيدة نفيسة أن تنتقل إلى دار له بدرب الكرويين المعروف الآن بالحسينية، وهذه الدار باقية للآن، وكذلك الحجرة التى كانت تتعبد فيها باقية، وهى محل إجلال وإكبار، ولا يدخلها إلاّ من عهد إليه بنظافتها.

وسأعود بعد قليل إلى الكلام عن كرامات السيدة الصالحة، على أنه ما كادت تذاع تلك الكرامة حتى هرع إليها القوم من جميع الجهات يلتمسون بركاتها ودعواتها فتكاثرت الجموع على بابها، وضاقت بهم الدار بما رحبت ففكرت مليًا فى مغادرة مصر حيث تعود ثانيًا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، لتقضى بقية عمرها فى هدوئها وعبادتها ومناجاة بارئها، وتلتزم حرم جدّها المصطفى صلى الله عليه وسلم، فاشتدّ ذلك على أهل مصر وشق عليهم أن تفارقهم وقد لمسوا نفحاتها، وعرفوا هداها وتقواها، وما أفاضه الله تعالى عليها من فيوضات وما يحيطه بها من تجليات ومشاهدات فالتمسوا منها العدول عن عزمها ورجوها البقاء بين ظهرانيهم، فأبت عليهم طلبهم وصارحتهم بأنها تريد انفرادها لعبادة ربها، ولا يشغلها منهم شاغل، ولما رأوا منها إصرارًا على مغادرة الديار، ولّوا وجوههم نحو والى مصر السرى بن الحكم بن يوسف[1].

(١) السرى بن الحكم بن يوسف مولى بنى ضبة. وأصله من بلخ وقد ولى إمرة مصر بإجماع الجند وأهل مصر على الصلاة والخراج معًا، وذلك فى مستهل شهر رمضان سنة مائتين بعد عزل المطلب بن عبد الله الخزاعى عنها، وقد سكن العسكر على عادة أمراء مصر.

وكان السرى أميرًا جليلا، معظمًا فى الدول وفى الأعمال وتنقل فى البلاد، وقد توفى سنة خمس ومائتين، فولى ابنه محمد إمرة مصر بعد وفاة أبيه، فكان على غرار أبيه إلى أن توفى سنة ست ومائتين، فوليها أخوه عبد الله بن السرى، وقد بقى فى ولايته إلى أن عزله المأمون فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين.

وكان آل السرى يُكبرون السيدة نفيسة ويعظمونها ويكثرون من زيارتها وتعهدها ويعرضون عليها خدمتهم إياها، وما إن ذهبت جمهرة من محبيها إلى السرى يخبرونه بعزمها، ويسألونه أن يتوسل إليها فى العدول عن عزمها. فانتقل السرى إليها يستعطفها ويرجو بقاءها بمصر.

فقالت: «إنى كنت قد اعتزمت المقام عندكم، غير أنى امرأة ضعيفة، وقد تكاثر الناس حولى وأكثروا من زيارتى فشغلونى عن أورادى وجمع زادى لمعادى، غير أن منزلى هذا يضيق بهذا الجمع الكثيف والعدد الكثير، وقد زاد حنينى إلى روضة جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم».

فقال لها السرى: «يا ابنة رسول الله إنى كفيل بإزالة ما تشكين منه، وسأمهد لك السبيل وأهيئ لك ما فيه راحتك ورضاك، أما ضيق المنزل فإن لى دارًا واسعة بدرب السباع، وإنى أشهد الله تعالى أنى قد وهبتها لك وأسألك أن تقبليها منى ولا تخجلينى بردها علىّ».

فقالت بعد سكوت طويل: «إنى قد قبلتها منك».

ثم قالت: «يا سرى كيف أصنع بهذه الجموع الكثيرة والوفود الغفيرة؟».

فقال: «تتفقين معهم على أن يكون للزوار فى كل جمعة

يومان، وباقى الأسبوع تتفرغين لعبادتك وخدمة مولاك، فاجعلى يومى السبت والأربعاء للناس».

فقبلت منه ذلك وانتقلت إلى داره وخصصت للزيارة يومى السبت والأربعاء من كل أسبوع.

أولياء الله وكرامتهم:

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابدّ له منه».

ولقد آمن أولياء الله بالله، ووالوه فأحبوا ما أحب وأبغضوا ما أبغض، ورضوا بما يرضى به وسخطوا على ما يسخط، وأمروا بما أمر ونهوا عما نهى، وآمنوا برسوله واتبعوا النور الذى أنزل معه ظاهرًا وباطنًا، فكانت لهم كراماتهم.

والكرامة أمر خارق للعادة يكرم الله بها من يشاء من أوليائه وأصفيائه، ويحبو بها عترة نبيه صلى الله عليه وسلم على أن تكون

غير مقرونة بدعوى النبوّة، وفيها تثبيت لهم وإظهار لفضل الله عليهم ونفحته لهم ولمحته بهم.

وهى جائزة عقلا إذ هى من جملة الممكنات التى لا تستحيل على القدرة الإلهية، وهى مظهر من مظاهر رضوان الله وزلفاه، وقد غمر الله سبحانه وتعالى آل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بفضله، وشملهم بفيوضاته فظهرت على أيديهم الكرامات، وتتابعت منهم على الناس البركات والنفحات، من إجابة الدعوات وكشف الكربات وقضاء الحاجات، وقد اتفق علماء السنّة على جوازها، وأن الله عز وجل اختص بها من أحب من عباده وأوليائه وأصفيائه وآل بيت نبيه الطاهرين، وعترة رسوله المباركين، وآية ذلك ما ورد فى كتاب الله تعالى، قال عز شأنه ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، إذ لا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولاهم يحزنون من فوات مطلوب، فالله يتولاهم وينجز لهم طلبهم ولو كان خارقًا للعادة فهم يتولونه بطاعته ويتولاهم بكرامته ونعمته.

وقال تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا، قال يا مريم أنّى لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ إذ كانت تأتيها فاكهة الشتاء فى الصيف، وفاكهة الصيف فى الشتاء، وهذا خارق للعادة إرادة لرفعة شأنها، ولذا دعا زكريا ربه بمكانها الطاهر ليرزقه ولدًا فى شيخوخته كرامة له وكرامة مريم على ربها.

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلّا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقًا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا﴾ فما شملهم به من رعايته إلى بقائهم تلك السنين الطوال فى نومهم سالمين، وقد خرجوا سالمين، ذلك كله أمر خارق للعادة، على أن كرامة الولى هى آية معجزة النبى صلى الله عليه وسلم.

ولله در البوصيرى حيث يقول :

والكرامات منهم معجزات حازها من نوالك الأولياء

وفى أولياء الله يقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد بخيت :

يقول الله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾، وقال تعالى : ﴿الله ولىُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فأنت ترى أن الله تعالى قد بين لنا أنه سبحانه وتعالى له أولياء، وأن هؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وبيّن حالهم فى الدنيا فقال : ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أى أنهم بلغ من أمرهم فى معاملاتهم وكافة شئونهم أن شيئًا مما قدر لهم لا يفوتهم ولا يحزنون على شىء قد فاتهم لأنهم يعلمون حق العلم أن كل ما قدره الله لهم وعلم أن يكون لهم، لابدّ أن يصل إليهم، فلا

يفوتهم منه شيء فهم مصدّقون بالقضاء والقدر، فإن فاته شيء مما يطلبه لا يحزن على فوته لاعتقاده أنه لم يقدَّر له، ولو قدر له ما فاته كما أن ما وصل إليه إنما وصل بقضاء الله وقدره، فهو واثق بالله تمام الوثوق، ولذلك وعدهم بأن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ووصفهم أيضًا بأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب إيمانهم، كما يشعر بذلك تعليق الحكم بإخراجهم بالإيمان الذى استفيد من الموصول والصلة.

فالولىّ شرعًا بمقتضى هاتين الآيتين هو من يتولى الله تعالى ويتخذه مولى له، فيؤمن به ويتقيه ويمتثل أوامره، ويجتنب نواهيه، ويتولاه الله تعالى بأن يوفقه فيخرجه من ظلمات الجهل إلى نور العلم، فكل مؤمن له قسط من الولاية على قدر قسطه من إشراق نور الإيمان فى قلبه وتقواه، أو شرح صدره للإيمان والإسلام، وإذن فكل مؤمن ولىّ، وإنما تختلف درجات الولاية على حسب اختلاف درجات التقوى، فمن المؤمنين من يتقى الخلود فى النار بأن يكون مؤمنًا عاصيًا، ومنهم من يتقى دخول النار بأن يكون مؤمنا مطيعًا لله فى كل أعماله مراقبًا له تعالى فى سرّه وجهره، معتقدًا تمام الاعتقاد أن الله تعالى معه أينما كان، وأنه لا يكون فى شأن ولا يعمل من عمل إلا والله معه حين يفيض فى الشأن أو العمل، راجيًا ثواب الله تعالى خائفًا من عقابه.

وقد عرّف علماء الكلام الولىّ بأنه هو العارف بالله تعالى

وصفاته، المواظب على الطاعات والمجتنب للمعاصي، المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات، فهو القائم بحقوق الله وحقوق العباد حسب الإمكان؛ ولذلك قال عبد السلام صاحب الجوهرة فى الولى إنه هو من تولى الله تعالى أمره فلم يكله إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة، أو الذى يتولى عبادة الله تعالى وطاعته، فعبادته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان، وكلا المعنيين واجب تحققه حتى يكون الولىّ وليًّا عندنا فى نفس الأمر.

وهذا الولىّ بالمعنى الأخصّ وهو المراد من قول صاحب الجوهرة :

وأثبتن للأوليا الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

فهو الولىّ الذى تظهر على يديه الكرامة.

وأما الولى بالمعنى الأعم، فهو الذى يشمل كل مؤمن، ويتحقق فيه المعنيان متى تحقق فيه الإيمان المنجى من الخلود فى النار، سواء انضم معه الإيمان والتقوى المنجيان من الدخول فى النار أم لا ، بخلاف الولىّ بالمعنى الأخصّ الذى تقدم.

وقال علماء الكلام : (يجب الاعتقاد بأن للأولياء كرامة حال حياتهم فى الدنيا وبعد موتهم يوم القيامة، والمراد أنه يجب على كل مكلف أن يعتقد الكرامة أى حقيقتها بمعنى جوازها ووقوعها لهم، كما ذهب إليه جمهور أهل السنّة، ومعنى الكرامة أمر خارق للعادة،

عادة البشر غير مقرون بدعوى نبوّة، ولا هو مقدمة لها يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبى كلف بشريعة، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها أو لم يعلم بعدم الاقتران المذكور عن المعجزة، فلا تلتبس بها وينفى مقدمتها عن الإرهاص، وما يظهر على يد الأنبياء قبل النبوّة كتظليل الغمام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم).

وأما الدليل على جواز وقوع الكرامات للأولياء بعد مماتهم، فهو ما نقله الحافظ عبد العظيم المنذرى فى كتاب الترغيب والترهيب حيث قال عن ابن عباس رضى الله عنهما: (ضرب بعض الصحابة خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هى المانعة، هى المنجية من عذاب القبر) رواه الترمذى.

ويقول الحموى: «وفى هذا دليل على وقوع الكرامة بعد الموت بتقصيره صلى الله عليه وسلم حيث أقر قراءة الميت سورة الملك وقال: هى المانعة هى المنجية من عذاب القبر».

ويقول العلامة التفتازانى: (إن ما يظهر من الخوارق بعد موت الأنبياء يكون كرامة لهم لا معجزة).

وعلى ذلك فما يظهر من التصرفات على يد الأولياء، ولا يخالف الدين، لأن هذا التصرف الذى ينسب للأولياء هو نوع من

الكرامات، وهو فعل الله وخلقه يظهره الله إكرامًا لهم، تارة بإلهام، وتارة بمنام، وتارة بدعائهم، وتارة بفعلهم واختيارهم، وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم، بل قد يحصل من الصبي المميز وتارة بالتوسل إلى الله تعالى بهم فى حياتهم وبعد مماتهم مما هو يحكى فى القدرة الإلهية، ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم إلى الخلق والإيجاد والاستقلال بالأفعال، فإن هذا لا يقصده مسلم ولا يخطر ببال أحد من العوام فضلا عن غيرهم، فصرف الكلام إليه ومنعه من باب التلبيس فى الدين والتهويش على عوام الموحدين، فلا يظن بمسلم بل ولا بعاقل توهم ذلك فضلا عن اعتقاده، وكيف بالكفر أو بمخالفة القرآن على من اعتقد ثبوت التصرف لهم فى حياتهم وبعد مماتهم، حيث كان مرجع ذلك كله إلى قدرة الله تعالى خلقًا وإيجادًا.

أما ما ورد فى الآثار من الكرامات، فما ظهر عن الخلفاء الراشدين، فإن الصديق أبا بكر رضى الله عنه لما حملت جنازته إلى باب قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ونودى السلام عليك يا رسول الله، هذا أبو بكر بالباب، فإذا بهاتف يهتف من القبر: أدخلوا الحبيب إلى الحبيب.

وأما أبو حفص عمر رضى الله عنه فقد ظهرت له كرامات كثيرة، فإنه قد بعث جيشًا وأمّر عليه رجلاً يدعى سارية بن

الحصين، فبينما عمر يخطب يوم الجمعة جعل يصيح فى خطبته وهو على المنبر: ياسارية الجبل، قال علىّ كرم الله وجهه، فكتبت تاريخ تلك الكلمة، فقدم رسول مقدم الجيش، فقال: يا أمير المؤمنين، غزونا يوم الجمعة فى وقت الخطبة، فهزمنا الأعداء، فإذا بصوت يقول: (يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة هذا الصوت).

ويذهب بعضهم إلى أن ذلك معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم، إذ أنه قال لأبى بكر وعمر: «أنتما منى بمنزلة السمع والبصر» فلما كان عمر بمنزلة البصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا جرم إذا قدر على أن يرى سارية وجيشه من ذلك البعد العظيم.

وكان من عادة المصريين ألاّ يجرى نيلهم حتى يلقى فيه جارية حسناء، فبعد الفتح كتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر، فكتب عمر على خرقة: (أيها النيل، إن كنت تجرى بأمر الله فاجر، وإن كنت تجرى بأمرك فلا حاجة بنا إليك) فألقيت تلك الخرقة فى النيل، فجرى بإذن الله تعالى ولم يقف بعد ذلك.

وجاء إلى عمر رسول ملك الروم فطلب دار عمر وقد ظن أن داره مثل قصور الملوك، فقالوا: ليس له ذلك، وإنما هو فى الصحراء يضرب اللبن، فلما ذهب إلى الصحراء رأى عمر وقد وضع درته تحت رأسه ونام على التراب، فعجب الرسول من ذلك،

وقال: إن أهل الشرق والغرب يخافون من هذا الإنسان وهو على هذه الصفة، ثم قال فى نفسه: إنى وجدته خاليًا فأقتله وأخلص الناس منه، فلما رفع السيف أخرج الله عز وجل من الأرض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيئًا، فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم.

وكان لعلىّ مولى وقد سرق - وكان عبدًا أسود فأتى به إلى علىّ فأقر فقطع يده، فلقيه سلمان الفارسى وابن الكواء.

فقال: قطع يدى أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول. قال ابن الكواء: قطع يدك وتمدحه؟.

فقال ولم لا أمدحه وقد قطع يدى بحق وخلصنى من النار.

فأخبر سلمان عليًّا بذلك، فدعا الأسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات، فإذا بصوت من السماء: أن ارفع المنديل عن اليد، فرفعناه فإذا اليد قد برئت بإذن الله تعالى وجميل صنعه.

ولما طعن الخليفة سيدنا عثمان رضى الله عنه كانت أول قطرة من دمه وقعت على المصحف على قوله تعالى: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾.

أما سائر الصحابة فأحوالهم فى هذا الباب كثيرة، وقد اكتفينا

بهذا القدر وثمت دلائل عقلية وقطعية على جواز الكرامات من وجوه :

أولا : أن العبد ولّى الله تعالى، قال الله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، والرب ولّى العبد، قال عز وجل : ﴿الله ولّى الذين آمنوا﴾ فثبت أن الرب ولّى العبد، وأن العبد ولّى الرب، وأيضًا الرب حبيب العبد، والعبد حبيب الرب، قال الله تعالى : ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وقال : ﴿والذين آمنوا أشدّ حبًا لله﴾ وقال : ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾، **وإذا ثبت هذا نقول : إن العبد إذا بلغ فى الطاعة** إلى حيث يفعل كل ما أمره الله، وكل ما فيه رضاه، وترك كل ما نهى الله وزجر عنه، فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد، بل هو أولى لأن العبد مع ضعفه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله ويأمر به فلأن يفعل الرب الرحيم القدير به مرة واحدة ماأراده العبد كان أولى : ولهذا قال الله تعالى : ﴿وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم﴾.

ثانيا : على أنه لو امتنع إظهار الكرامة، لكان ذلك إما لأن الله تعالى ليس أهلا لأن يفعل مثل هذا الفعل، أو لأن المؤمن ليس أهلا لأن يعطيه الله مثل هذه العطية، والأول قدح فى قدرة الله تعالى وهو كفر، والثانى باطل، فإن معرفة ذات الله وصفاته

وأفعاله وأحكامه وأسمائه ومحبة الله وطاعته والمواظبة على ذكره وتقديسه وتمجيده وتهليله، أشرف من إعطاء رغيف واحد فى مفازة، أو تسخير حية أو أسد، فلما أعطى المعرفة والمحبة والذكر والشكر من غير سؤال فلأن يعطيه رغيفًا فى مفازة أو يسخر ما يسخره أقرب ولا بعد فيه.

ثالثا : وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم حكاية عن رب العزة : «ما تقرب عبد إلىّ بمثل أداء ما افترضت عليه، فلا يزال يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا وقلبًا ويدًا، ورجلا، بى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يمشى» وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق فى سمعه نصيب لغير الله تعالى، ولا فى بصره ولا فى سائر أعضائه إذ لو بقى هناك نصيب لغير الله جل شأنه لما قال أنا سمعه وبصره، فإذا ثبت هذا فنقول : «لا شك أن هذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع، وإعطاء الرغيف وعنقود من العنب أو شربة من الماء، فلما أوصل الله برحمته عبده إلى هذه الدرجات العالية، فأى بعد فى أن يعطيه رغيفًا واحدًا أو شربة ماء فى مفازة».

رابعا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيًا عن رب العزة : من آذى لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة. فجعل إيذاء الولى قائمًا مقام إيذائه، وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿إن الذين

يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ وقال تعالى : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾.

وقال : ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة﴾ فجعل بيعة محمد صلى الله عليه وسلم، بيعة مع الله عز وجل، ورضاء محمد صلى الله عليه وسلم، رضا الله جل جلاله، وإيذاء محمد صلى الله عليه وسلم إيذاء الله سبحانه، فلا جرم إذا كانت درجة محمد صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات، وكان واصلا إلى أبلغ الغايات.

فكذا هنا لما قال من آذى لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة، فدل ذلك على أنه تعالى جعل إيذاء الولى قائمًا مقام إيذاء نفسه، ويتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة : مرضت فلم تعدنى، واستسقيتك فما سقيتنى، واستطعمتك فما أطعمتنى، فيقول : يارب كيف أفعل هذا وأنت رب العالمين؟ فيقول : إن عبدى فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدت ذلك عندى، وكذلك فى السقى والإطعام فدلت هذه الأخبار على أن أولياء الله يبلغون إلى هذه الدرجات فأى بعد فى أن يعطى الله تعالى وليا من أوليائه كسرة خبز أو شربة ماء أو يسخر كلبًا أو ذئبًا أو يطوى له أرضًا ويقرب منه بعيدًا.

خامسًا وأخيرًا[1]: فإن الكرامة مبنية على القوانين العقلية الحكيمة، فإن جوهر الروح ليس من جنس الأجسام الكائنة الفاسدة المتعرضة للتفرق والتمزق، بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكان عالم السموات ونوع القديسين المطهرين، إلا أنه لما تعلق بهذا البدن واستغرق فى تدبيره، صارت فى ذلك الاستغراق إلى حيث نسى الوطن الأول والمسكن المتقدم، وصار بالكلية متشبثًا بهذا الجسم الفاسد، فضعفت قوته وذهبت مكنته، ولم يقدر على شىء من الأفعال العظيمة. أما إذا استأنست بمعرفة الله ومحبته، وقل انغماسها فى تدبير هذا البدن، وأشرقت عليها أنوار الأرواح السماوية العرشية المقدسة، وفاضت عليها من تلك الأنوار أضواؤها القدسية، قويت على التصرف فى أجسام هذا العالم مثل قوة الأرواح الفلكية على هذه الأعمال، وذلك هو الكرامات، وفيه لمحة رائعة وهو أن الأرواح البشرية مختلفة بالماهية ففيها القوية والضعيفة، وفيها النورانية والحالكة وفيها الصافية والكدرة، وفيها الحرة والمستعبدة، وفيها العزيزة والذليلة. والأرواح الفلكية أيضًا كذلك ألا ترى إلى جبريل عليه السلام كيف قال الله تعالى فى وصفه: ﴿إنه لقول رسول كريم ۞ ذى قوة عند ذى العرش مكين ۞ مطاع ثم أمين﴾.

وقال فى قوم آخرين من الملائكة: ﴿وكم من ملك فى

---

(١) كريمة الدارين: للأستاذ أحمد فهمى.

السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا﴾.

فكذا ههنا فإذا اتفق فى نفس من النفوس كونها قوية القوة القدسية العنصرية مشرقة الجوهر علوية الطبيعة، ثم يضاف إليها أنواع الرياضات التى تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد أشرقت وتلألأت وقويت على التصرف.

منكرو الكرامات:

أما منكرو الكرامات فحجتهم ما يأتى:

١ - يقولون: إن ظهور الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلا على النبوة، فلو أنه حصل لغير نبيّ لبطلت هذه الدلالة؛ لأن حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح فى كونه دليلا، وذلك باطل.

ويرد الأستاذ أحمد فهمى على هذه النقطة بقوله: «إن الناس اختلفوا فى أنه هل يجوز للولىّ دعوى الولاية؟» فقال قوم من المحققين إن ذلك لا يجوز، فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات. أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية، والسبب فى هذا الفرق أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: إنما بعثوا إلى الخلق ليصيروا دعاة للخلق ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة، فلو لم تظهر دعوى النبوة لم يؤمنوا

به، وإذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر، وإذا ادّعوا النبوّة وأظهروا المعجزة آمن القوم بهم، فإقدام الأنبياء على دعوى النبوة ليس الغرض منه تعظيم النفس بل المقصود منه إظهار الشفقة على الخلق حتى ينتقلوا من الكفر إلى الإيمان، أما ثبوت الولاية للولىّ فليس الجهل بها كفرا ولا معرفتها إيمانا فكان دعوى الولاية طلبًا لشهوة النفس فعلمنا أن النبي يجب عليه إظهار دعوى النبوة والولىّ لا يجوز له إظهار دعوى الولاية فظهر الفرق.

أما الذين قالوا: إنه يجوز للولىّ أن يدّعى الولاية، فقد ذكروا الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه:

(أ) أن ظهور الفعل الخارق للعادة يدل على كون ذلك الإنسان مبرأ عن المعصية، ثم إن اقترن هذا الفعل بادعاء النبوّة، دل على كونه صادقًا فى دعوى النبوة، وإن اقترن بادعاء الولاية دلّ على كونه صادقًا فى دعوى الولاية، وبهذا لا يكون ظهور الكرامة على الأولياء طعنًا فى معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(ب) أن النبي صلى الله عليه وسلم يدعى المعجزة ويقطع بها والولىّ إذا ادعى الكرامة لا يقطع بها، لأن المعجزة يجب ظهورها أما الكرامة فلا يجب ظهورها.

(ج) أنه يجب نفى المعارضة عن المعجزة، ولا يجب نفيها عن الكرامة.

(د) أنه لا يجوز ظهور الكرامة على الولى إذا ادّعى الولاية، إلاّ إذا أقر عن دعواه بكونه على دين ذلك النبى، ومتى كان الأمر كذلك، صارت تلك الكرامة معجزة لذلك النبى، ومؤكدة لرسالته، وبهذا التقدير لا يكون ظهور الكرامة طاعنًا فى نبوة النبى، بل يصير مقويًا لها.

٢ - تمسك المنكرون بقوله صلى الله عليه وسلم، حاكيًا عن رب العزة سبحانه «لن يتقرب المتقربون إلىّ بمثل أداء ما افترضت عليهم». فقالوا: هذا يدل على أن التقرب إلى الله بأداء الفرائض، أعظم من التقرب إليه بأداء النوافل، ثم إن المتقرب إليه بأداء الفرائض، لا يحصل له شىء من الكرامات، فالتقرب إليه بأداء النوافل أولى ألاّ يحصل له ذلك.

والرد على ذلك: أن التقرب بالفرائض وحدها أكمل من التقرب بالنوافل، أما الولى فإنما يكون وليًا إذا كان آتيًا بالفرائض والنوافل، ولا شك أن يكون حاله أتم من حال من اقتصر على الفرائض، فظهر الفرق.

٣ - وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس﴾، والقول بأن الولى ينتقل من بلد إلى بلد بعيد، لا على هذا الوجه طعن فى هذه الآية، وأيضًا فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة إلى المدينة إلاّ فى أيا

كثيرة مع التعب الشديد، فكيف يعقل أن الولى ينتقل من بلده إلى مكة للحج فى يوم واحد.

والرد على ذلك : أن قوله تعالى : ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾، محمول على المعهود المتعارف، وكرامات الأولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثناة من ذلك العموم.

٤ - وقالوا : إن هذا الولى الذى تظهر عليه الكرامات إذا ادّعى على إنسان درهما فهل نطالبه بالبينة أو لا ؟ فإن طالبناه بالبينة كان عبثًا لأن ظهور الكرامات عليه يدل على أنه لا يكذب ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظنى، وإن لم نطالبه بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم : « البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر » فهذا يدل على أن القول بالكرامة باطل.

والرد على البند الثالث فيه الكفاية للرد أيضا على هذا البند.

٥ - إذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء جاز ظهورها على الباقين، فإذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة جرت وفقًا للعادة وذلك يقدح فى المعجزة والكرامة.

والرد على ذلك : أن المطيعين فيهم قلة، كما قال تعالى : ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾، وكما قال إبليس : ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ وإذا حصلت القلة فيهم لم يكن ما يظهر عليهم

من الكرامات فى الأوقات النادرة قادحًا فى كونها على خلاف العادة.

سبعة أولياء فى مصر لهم الكرامة:

قيل: إن فى مصر سبعة أولياء لهم التصرف ومنهم السيدة نفيسة رضى الله عنها، والسيد البدوى، وإمامنا الشافعى، وقد أكرمهم الله تعالى وأظهر خارق العادات لمن يتوسل بواحد منهم فى أى شىء من الأشياء التى تكون كرامة للولى، وفى اعتقادى أنه ليس هذا التوسل ممنوعا أصلا لأن التوسل بالولىّ إنما يطلب من الله إجابة طلبه إكرامًا لهذا الولىّ، لاعتقاده أن هذا الولىّ أقرب منه إلى الله تعالى، وهذا لا فرق فيه بين الحى والميت لأن الفاعل هو الله تعالى، بل إنه بعد الموت أقرب منه حال الحياة الدنيوية لأن الروح بعد المهات غير مشغولة بتدبير شئون البدن.

ولكن ما هى الوسيلة؟

الوسيلة جاءت فى سورة المائدة فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون﴾، والوسيلة والوصيلة لفظان معناهما واحد، أى ما يتوصل به إلى المقصود.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ اطلبوا ما يوصلكم

إليه، فمعنى الآية : اتقوا الله واطلبوا ما يوصلكم إليه، وتقديم « إليه » فى قوله تعالى : ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ لإفادة الحصر، أى اطلبوا ما يوصل إليه وحده لا إلى غيره.

وما الذى يوصل المؤمن إلى ربه ؟

أول ما يوصل المؤمن إلى ربّه إيمانه الصادق وعمله الصالح، كذلك من الوسائل التى توصل الإنسان إلى ربه دعاء غيره له، فالإنسان إذا عمل أعمالا أو تخلق بأخلاق، أو أسدى معروفا، وأدّى هذا إلى أن تنطلق ألسنة الناس بالدعاء له، فهذا من غير شك وسيلة توصل الإنسان إلى ربه، وهذا داخل فى قوله تعالى : ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾.

ولهذا لما استأذن عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يعتمر وأذن له الرسول فى أن يعتمر قال له : « لا تنسنا يا أخى من دعائك ».

وفى الحديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث : صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له »، فهذه تدل على أن دعاء الشخص لغيره وسيلة توصل الإنسان إلى ربه لأنه ليس المراد بالوسيلة إليه الوسيلة إلى ذاته لأنه لا وسيلة إلى ذات الله، وإنما المراد الوسيلة إلى ثوابه وإلى رضاه، والذى يوصل إلى ثواب الله وإلى رضاه عمله وإيمانه أو دعاء غيره له.

بقي التوسل بذات رسول الله أو النبي أو الولي أو الصالح.

فهل هذه أيضا وسيلة؟

فهل يتوسل إلى رضاء الله وثوابه بأشخاص يرى المتوسل أن لهم كرامة ومنزلة عند الله، وأن التوسل بهم يوصل؟

قال بعض العلماء: إنه يصح التوسل بأشخاص الرسل والأنبياء والأولياء والصالحين، ولكن على معنى أن هؤلاء لهم عند الله مكانة، وأن الله سبحانه يخصّهم بتكريمه لهم، ومن أنواع تكريمه لهؤلاء الرسل والأنبياء والصالحين أن يثيب من يتوسل بهم لأن هذا التوسل فيه تقديرهم وتكريمهم والله يكرم ويرضى عن تقدير أوليائه ورسله، والتوسل بهؤلاء الأشخاص عنوان تقدير المتوسل بهم وتكريمه، والله سبحانه وتعالى يثيب من يكرم المقربين له، ويستدل على هذا بأن عمر ابن الخطاب كان يأخذ العباس بن عبد المطلب معه إذا أجدبت الأرض وأرادوا الاستسقاء، وكان يقول: «اللهم إنّا كنا نستسق برسولك ونحن الآن نستسق بعم رسولك» وظاهر هذه الكلمة أنه توسل بالأشخاص.

وعن ابن عمر قال: ربما تذكرت قول أبي طالب وأنا أنظر إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال:

وأبيض يستسق الغمام بوجهه كفيل اليتامى عصمة للأرامل

وقد روى النسائي والترمذي وغيرهما أن النبي صلى الله عليه

وسلم علّم بعض أصحابه أن يدعو، فيقول: « اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك نبى الرحمة يا محمد يا رسول الله إنى أتوسل بك إلى ربى فى حاجتى ليقضيها لى، اللهم فشفعه فى ».

وهذا يدل على جواز التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم حيا وميتا.

وفى الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

« إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرة، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا ينبغى أن تكون إلاّ لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون ذلك العبد، فمن سأل لى الوسيلة حلّت له شفاعتى يوم القيامة ».

ويقول بعض العلماء: إن معنى التوسل بهؤلاء الأشخاص التوسل بجاههم عند الله، وجاههم عند الله ما هو إلاّ فضل الله عليهم وإحسانه عليهم فهو توسل بصفات من صفات الله وإن كان ظاهره أنه توسل بالأشخاص.

ونعود فنقول: إنه لا يجب الاعتقاد أن فلانًا بعينه ولى، وأن الله أظهر الكرامة على يده فلم يقل أحد من العلماء بوجوبه على أحد بحيث يكفر جاحده بل يجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أية كرامة كانت من أى شخص كان على التعيين،

ولا يكون بإنكاره هذا مخالفًا لشيء من أصول الدين ولا مائلا عن سنّة صحيحة ولا منحرفا عن الصراط القويم فإنه لم يجئ فى الشرع إلّا أشهد ألّا إله إلّا الله وأن محمدا رسول الله، ولم يقل أحد بأنه جاء فى الشرع زيادة على ذلك وأن فلانا بعينه ولّى الله. لكن من ينكر أن لله أولياء معينين فهذا هو المخالف للقرآن ولإجماع السنّة.

بقيت كلمة أخيرة عن زيارة القبور فهى تارة يقصد بها الموعظة بالأموات وهذه تعم جميع القبور والأموات، وتارة يقصد بها الاستمداد والتبرك بالمزور، وهذا يختص بالأنبياء، والأولياء الصالحين، ألم يعلموا أن الإنسان يتأثر بتصوراته وأن نفسه تحت قهر سلطان الوهم، فكم من إنسان تحقق أنه سيقتل لا محالة فتصور الموت واقعًا به فمات بسبب ذلك قبل أن يقتل.

كذلك إذا زار الإنسان مشهد الحسين رضى الله عنه واعتقد أنه بمكان طاهر بين يدى ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم استولى عليه الخشوع والخضوع وامتلأ قلبه إخلاصًا فيدعو الله مخلصًا موقنا بالإجابة خصوصا إذا اعتقد أن روح الحسين رضى الله عنه تسأل الله تعالى إجابة دعاء زائره، أليس ذلك سببًا فى إجابة الدعاء وقضاء حوائج الزائرين المخلصين.

ولا نرى مسلما ولو عاميا يتوهم فضلا عن أن يعتقد أن لله شريكا فى خلقه مهما اعتقد الزائر أن المزور أطهر منه روحًا وأصفى نفسًا بما أعطاه الله تعالى من الكمال الإنسانى.

الكرامات وروح العصر:

إن الكثير من المثقفين فى العصر الحاضر يمجون ذكر الكرامات، هكذا بدون حساب وفى إسراف مسرف، ومما لا شك فيه أن أتباع الولىّ أينما كان وأينما كانوا يحاولون الإشادة بذكره فيروون عنه الكرامات الكثيرة فيصادف ذلك قبولا وارتياحا عند البعض ونفورًا وإعراضا عند الآخرين، يجب أن يخضع العقل الإنسانى للرسالات الإلهية وهى التى تمده وترشده وتهديه، فإذا استجاب لها أمن على نفسه العثار والزلل، وإذا جمح وتأبى عليها وقع فى أغلال الغرائز وانقلب عمله كله إلى استجابات مادية تصبّ الحقائق فى قوالب مادية وتحيل الديانات والعقائد إلى مجموعة من الصور الوثنية.

والعقل الإنسانى وهذا مكانه من الرسالات الإلهية كثيرا ما يقوده الغرور الأخرق إلى أن يقف منها موقف الحاكم المستبد فيثبت من حقائقها ما يشاء ويمحو منها ما يشاء ويتشكك فيما يشاء، ومن العجيب أنه فى إتيانه ومحوه وشكّه أو تشككه لا يعتمد على منطق واحد، ولكنه التشهى الذى تقوده إليه الغرائز الجامحة فتوقعه فى الخبط والخلط فى الوقت الذى يزعم فيه أنه استوى على عرش المجد الفكرى، ومن هذه الحقائق التى وقف فيها ذلك الموقف فأنكر منها أشياء وارتاب فى أشياء وثبتت منها أشياء المعجزات والكرامات.

ولقد وصل الأمر ببعض المنكرين للكرامات أن أنكروا كل المعجزات الحسية التي ذكرت للرسول صلى الله عليه وسلم في السنّة الصحيحة، وفي الأخبار التي محصها رجال الحديث واكتفوا في المعجزات بالقرآن الكريم نافين كل شيء غيره مما ذكرته كتب الصحاح على اختلاف أنواعها.

إن روح الكثيرين في العصر الحاضر تنادي بإنكار الكرامات وتسخر في وضوح أو إشارات بكل من يروى كرامة ولى.

ويقول الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه «أبو الحسن الشاذلى»:

ومع قيام هذه المشكلة أمامى (مشكلة إنكار الكرامات) في وضوح فإننى لم أتردد قط في أن أبدأ كتاب بكرامة لأبي الحسن الشاذلى وما شككت قط في ثبوتها وما شككت قط في صحة النقل، ثم وجدتنى أنقل هذه الكرامات في مناسبة، وتلك في أخرى، ولم أجد في ضميرى عتابًا، ولا في شعورى تراجعًا، ولا في ذوق نفورًا، لماذا لم أجد حرجا في نقل بعض الكرامات للأسباب الآتية:

١ - إن القرآن الكريم يحدثنا في أسلوب لا لبس فيه عن المعجزات التي تفضل الله بها على رسله وأنبيائه، ويحدثنا عن الكرامات التي منحها سبحانه وتعالى لأوليائه وأصفيائه، ألم يحدثنا

القرآن الكريم بصورة لا تحتمل التأويل بأن عيسى عليه السلام كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فكيون طيرا بإذن الله، وأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله؟.

ألم يحدثنا عن سيدنا موسى بأن ألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون، وبأنه أخرج يده فإذا هى بيضاء للناظرين، وسيدتنا مريم، ألم تحمل بسيدنا عيسى من غير أب، خارقة بذلك قوانين الطبيعة، وكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله.

٢ - ثم إن ما نسميه قوانين الطبيعة، إنما هو فى الواقع عادات طبيعية وخرقها ليس بمستحيل عقلا، وخرقها لا يترتب عليه مستحيل، وعادات الطبيعة لا تسيطر على رب الطبيعة.

٣ - ثم إن هؤلاء الذين تجرى على أيديهم المعجزات أو الكرامات لا ينسبونها لأنفسهم، وإنما ينسبونها إلى المتفضل الوهاب، صاحب القدرة والقهر، إنهم ينسبونها إلى من هو على كل شىء قدير.

٤ - والملاحظ فى منكرى الكرامات على مر العصور أنهم يتميزون بألوان الغلظة وقساوة القلب، فلا تجد منهم رقة الشعور، ولا صفاء البصيرة، ولا ملائكية الروح، وهم إن لم يكونوا من الملاحدة، فهم من الصنف الذى لم يخالط الإيمان شغاف قلبه، وإنما

بقى صورة عائمة على السطح.

٥ - وجمهرة المسلمين على ممر العصور عامتهم وخاصتهم وقممهم الشوامخ فى العلم والدين من الذين يثبتون الكرامات ويؤمنون بها.

ويضرب الدكتور عبد الحليم محمود مثلا خاصا به يضيفه إلى الأسباب العامة التى ذكرناها، والتى تجعله يؤمن بالكرامات فيقول:

«فى فترة من الفترات ابتلانى الله بموضوع شق على نفسى وعلى نفس المحيطين بى، واستمر الابتلاء مدة كنا نلجأ فيها إلى الله طالبين الفرج.

وذات يوم أتى عندى بعض الصالحين، وكان على علم بهذا الابتلاء، وأعطانى ورقة كتبت فيها صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: اقرأها واستغرق فيها، وكررها منفردا فى الليل، لعل الله يجعلها سببًا فى تفريج هذا البلاء.

واعتكفت فى غرفة بعد صلاة العشاء، وأضأت نور الغرفة وأمسكت الورقة بيدى وأخذت فى تكرار الصيغة، واستغرقت فيها، وإذا بى أرى فجأة أن الحروف التى كتبت بها الصيغة مضيئة تتلألأ نورًا، ومع أن الغرفة كانت مضيئة، فإن الحروف كانت تتلألأ نورًا فى وسط النور، ولم أصدق عينى فغمضتها وفتحتها عدة مرات،

فكان النور على ما هو، فوضعت الورقة أمامى، ووضعت يدى على عينى أدلكهما وأدعكهما، ثم فتحت عينىّ، فإذا الحروف على ما هى عليه تتلألأ نورًا وتشع سناءً - فحمدت الله وعلمت أن أبواب الرحمة قد فتحت وأن هذا النور رمز لذلك، وفعلا أزال الله الكرب وحقق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة.

وأمر آخر من خوارق العادات شاهدته بنفسى :

فى ذات صباح كنت جالسا فى المنزل فى غرفة المكتب كعادتى، وكنت فى تلك اللحظة مطأطئ الرأس، ثم رفعت رأسى ناظرا أمامى، وإذا بى أجد أمامى إنسانًا فأخذت فى تأمله دون أن أشعر قط بخوف أو فزع، كان طويلا أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة، يميل لونه إلى السمرة وعلى رأسه شال أبيض، وكان فى وقفته منحنيا قليلا، وقد تأملنا ملابسه أيضا فى تفاصيلها وشكلها، لم يتحدث معى ولم أتحدث إليه، وبعد فترة ونحن على هذا الوضع أنظر إليه فى تحديق ويمد عينيه إلىّ فى نظرات ثابتة أخذ يشف شيئا فشيئا وألاحظ أنا فى وضوح التدرج فى هذه الشفافية، وانتهت الشفافية بزواله تماما دون أن يتحرك من موضعه.

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى ختام كلامه : هذا ما شاهدته بنفسى.

ثم يذكر أيضا فى مقدمة كتابه عن «أبو الحسن الشاذلى»:

«لقد اضطررت إلى كتابته (يقصد كتاب أبى الحسن الشاذلى) اضطرارا، لقد حملت على تأليفه حملا، وما كان لى فى تحديد زمن كتابته من إرادة حرة، أو اختيار يبيح لى التأجيل الطويل، وسأذكر قصة تأليفه سواء أسخر الناس منها أم لم يسخروا، وسواء أصدقوها أم أنكروها، إننى أروى هنا ما وقع لى شخصيا أرويه كما حدث دون زيادة أو نقص، وما من شك فى أن مثله بل وأغرب منه يحدث كل يوم، ومع ذلك فإن المنكرين والشاكين والساخرين لا يزيدهم ذلك إلاّ شكا وإنكارا واستمرارا فى السخرية..».

ثم يتكلم الدكتور عبد الحليم فى ما صادفه فى التحضير لهذا الكتاب، وطلبه المراجع من أصدقائه كما وجد فى دار العشيرة المحمدية بعض المراجع، ومنها كتاب (درة الأسرار) ثم سافر الدكتور إلى عدة أقطار، واستكمل المراجع ثم يقول: «ثم صرفتنى الصوارف، وطويت صحف أبى الحسن، وشغلت بأمور أخرى، ومضت الأيام والسنون وصحف أبى الحسن مطوية، حتى إذا كانت سنة ١٩٦٢ دعيت إلى تونس أستاذا زائرا لمدة شهر بجامعة الزيتونة فتجددت عندى الذكريات عن أبى الحسن، وأخذت أتنسم عبيره فى تونس، لقد صعدت إلى الجبل الذى كان يتعبد به، ودخلت المغارة التى كان يعتكف بها، ونزلت إلى نهاية المغارة، وجلست خاشعا

متعبدا حيث كان يتعبد أبو الحسن وحيث كان يقضي الساعات الطوال ليلا ونهارا، وحيث كان يخلو فريدا بربه متضرعا، يغلبه الشوق، وتغمره المحبة، ويعمر قلبه اليقين، وشعرت فى المغارة بطمأنينة النفس، وبالسكينة تملؤنى، وبتجمع خواطرى بصورة عجيبة وبالتركز الذهنى الذى يندر ويعز وجوده».

ثم يقول الدكتور عبد الحليم :

«وكنت فى ليبيا أستاذا زائرا للجامعة الإسلامية هناك، وكنت قد انتهيت من إلقاء المحاضرات فى البيضاء وبنى غازى وطرابلس، وكنت قد اتخذت الإجراءات للسفر حاجًّا إلى بيت الله الحرام، وبينا أنا فى طرابلس أنتظر أن أبحر منها إلى الأراضى المقدسة إذ بى أرى، فيما يراه النائم، شخصا أعرفه، اسمه «توفيق» أراه فى ملابس غير ملابسه العادية، أراه يلبس ملابس شرطى، ويمسك بيده قيدا ويقول لى آمرا : (اكتب عن أبى الحسن الشاذلى) وتلكأت فى الإجابة، وأردت أن أحول الموضوع وأن أتحدث معه فى شىء آخر، فإذا به يهدد بوضع القيد فى يدى، وإذا به ينذر ويتوعد فقلت له :

هل معنى ذلك أن أترك ما بيدى من أعمال لأكتب عن أبى الحسن الشاذلى ؟

فقال : نعم، اترك ما بيدك من أعمال واكتب عن أبى الحسن.

ورضى (توفيق) حينما وعدت بالكتابة.. واستيقظت».

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود:

ثم فكرت فى كتابة كتاب عن الإيمان وأخذت المراجع وقمت برحلة مع بعض الأصدقاء، ثم نزلنا من السيارة (سيارة أجرة) أمام القرية، وعادت السيارة من حيث أتت، عادت وبداخلها المراجع وتذكرت: (اترك ما بيدك واكتب عن الشاذلى) وقلت فى نفسى لنكتف بهذه الدروس ولنبدأ.

هذه قصة الدكتور عبد الحليم محمود مع أبى الحسن سجلها فى كتابه بدون زيادة أو نقص، ولك أن تستخرج منها ما تشاء، وإنما أقول: إنها كرامة الصوفى المجاهد العارف بالله أبى الحسن الشاذلى.

كرامات السيدة نفيسة

فى حديث للسيدة نفيسة عن الكرامات قالت:

«شتان بين خدع المخادعين وتضليل المضللين من الناس وبين كرامات الأولياء الصادقين، أولئك الذين يخصهم الله بتلك الكرامات لتكون برهانا على صدقهم وتكريما لهم من الله، ونورا يستضىء به من شاء أن ينسج على منوالهم ليصل إلى ما وصلوا إليه أو بعضه، فباب الرحمة مفتوح دائما لعباد الله - وطريق الطاعة

للقربى منه ميسر لكل من قهر نفسه وشيطانه وهما العدوان اللدودان اللذان إذا قهرهما عبد نجا وسار فى الطريق المستقيم متنقلا من نور إلى نور ومن مرتبة إلى أخرى حتى يلقى الله وهو راض عنه فتنعم روحه، ويشع من نعيمها بعض الكرامات لتهدى إلى سواء السبيل، وليس عزيزا على الله أن يكرم أولياءه فى دنياهم وفى رزقهم جزاء ما اتقوا وجاهدوا وصبروا، وقد تتجلى الكرامات فى أرواحهم الطاهرة فى البرزخ أكثر مما تجلت فى حياتهم الدنيا حتى يكون للكرامة أثر أبلغ فيمن يلمسها، أو يراها، أو يسمع عنها، فينشرح صدره، وينكب على طاعة ربه، وقد تكون تلك الكرامات بالإلهام أو فى رؤيا منامية، وإذا كان الولىّ فى الدرجات العليا استطاعت روحه البرزخية أن تنطق وتهدى إلى ما يخيل إلى الناس أنها انتقلت من باب الكرامات إلى باب المعجزات، وإن ذلك على الله يسير، ولا يجحد كرامات الأولياء إلاّ من طبع الله على قلوبهم، وأعمى أفئدتهم، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، أما فيما يتعلق بما سماه الناس بكرامات لى فهذه ليست إلاّ من قبيل النوع الذى يقود إلى الطاعة، والسير فيما يرضى الله حتى يصل من شاء الله له الهداية إلى منازل الصالحين».

وللسيدة نفيسة كرامات كثيرة فى حياتها وبعد وفاتها متصلة متتالية مترادفة متوالية، وقد ذكر الإمام ابن حجر رضى الله عنه نحوا من مائة وخمسين كرامة ذكرها لا على سبيل الحصر، بل على

سبيل المثال، وإنا لنذكر بعض كراماتها فى حياتها وبعد مماتها لنكشف قبسًا من ساطع نورها، ولمحة من لمحات ربها، وفيوضه عليها، وهى السيدة كريمة الدارين سليلة أهل البيت ومن كراماتها :

١ - قال عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى إمام الشام وفقيهها وعالمها، المتوفى فى سنة ١٥٨ : قلت لجوهرة، إحدى إماء الحسين : هل رأيت من سيدتك الصغيرة نفيسة كرامة؟ قالت : (نعم كنت فى يوم شديد القيظ وإذا بتنين (ثعبان) قد جاءنى وكان معى ماء لسيدتى نفيسة، فصار ذلك التنين يمرغ خدّه على الإبريق كأنه يتمسح به، تبركا بمائها، ثم ذهب من حيث أتى).

٢ - عن سعيد بن الحسن، قال : توقف النيل بمصر فى زمن السيدة نفيسة رضى الله عنها فجاء الناس إليها وسألوها الدعاء فأعطتهم قناعها فجاءوا به إلى النهر وطرحوه فيه فما رجعوا حتى زخر النيل بمائه وزاد زيادة عظيمة.

٣ - ازدحمت الخيل على أمها، وكانت تحملها، وهى طفلة رضيع لم تتجاوز نصف حول، فأشارت وهى فى حضن أمها بيدها الكريمة برد الخيل فردّها الله عزّ شأنه ببركتها إعلامًا بما يكون لتلك الطفلة فى مستقبل أيامها من علو شأن ورفعة قدر.

٤ - كان لامرأة عجوز أربع بنات يتقوّتن من غزلهن من الجمعة إلى الجمعة، وفى آخر الجمعة تأخذ أمهن العجوز غزلهن

وتمضى به إلى السوق فتبيعه وتشترى بنصف ثمنه كتانًا يغزلنه وبنصفه الآخر ما يمونهن طول الأسبوع، فأخذت العجوز يوما ما غزلته على عادتها ولفته فى خرقة حمراء ومضت به إلى السوق لبيعه فبينما هى سائرة فى طريقها والغزل على رأسها، إذا انقض طائر على رزمة الغزل بخرقتها الحمراء، واختطفها وارتفع فوقعت المرأة مغشيا عليها، فلما أفاقت أذرت دموعها، وأسالت عينيها، واسترسلت فى بكائها، ثم أخذت تقول: (كيف أصنع باليتيمات، وقد أجهدهن الجوع، وآلمهن السغب) فاجتمع القوم عليها، وسألوها عن شأنها وعما أبكاها، فأخبرتهم بقصتها، فدلوها على أن تذهب إلى السيدة نفيسة رضى الله عنها تبثها بثها وحزنها، وتذكر لها أمرها فينفس الله ما بها ويزيل غماءها.

فذهبت إليها لوقتها فأخبرتها بقصتها وما جرى لها وما أصاب بناتها من جوع وسألتها الدعاء فأشفقت عليها السيدة نفيسة ورثت لها ولبناتها ثم رفعت السيدة نفيسة ببصرها إلى السماء قالت: (يا من علا فقدر وملك فقهر، اجبر من أمتك هذه ما انكسر، فإنها وبناتها من خلقك وعيالك، يا أرحم الراحمين).

ثم قالت للعجوز: اقعدى، فإن الله بعباده رحيم، وهو على كل شىء قدير، فجلست المرأة بالقرب من الباب، وفى قلبها من جوع بناتها التهاب، فلم تمض ساعة حتى أقبل جماعة يطرقون باب

السيدة نفيسة ويستأذنون فى الدخول فأذنت لهم، فدخلوا وسلموا عليها وهى من وراء حجاب.

فسألتهم عما أقدمهم وعن أمرهم، فقالوا : (إن لنا لأمرًا عجبًا نحن قوم تجار ولنا مدة ونحن سائرون فى البحر فى سلامة وأمان فلما وصلنا إلى قرب بلدكم انثغرت فى مركبنا ثغرة وفتحت فيها فتحة فدخل فيها الماء وأشرفنا على الغرق فجعلنا نسد تلك الثغرة فلم تنسد فاستغثنا بالله تعالى وضرعنا إليه وتوسلنا بك إليه، فإذا بطائر ألق إلينا خرقة فيها غزل من الكتان فوضعناها فى تلك الفتحة فانسدت بإذن الله تعالى وببركتك، وقد جئنا إليك بخمسمائة درهم فضة شكرا لله تعالى على نجاتنا وسلامة مركبنا) وعند ذلك بكت السيدة نفيسة رضى الله عنها ورفعت بصرها إلى السماء وقالت :

(إلهى ما أرأفك بخلقك وألطفك بعبادك فلك الحمد الجميل والشكر الجزيل).

ثم نادت العجوز فأقبلت مسرعة فقالت لها سيدة الدارين : (بكم تبيعين غزلك كل جمعة) ؟.

فقالت : بعشرين درهما.

فقالت : أبشرى فإن الله تعالى عوضك عن كل درهم خمسا وعشرين درهما.

ثم قصت عليها قصة ذلك التاجر ودفعت إليها ذلك المبلغ،

فأخذته وهى تضرع إلى ربها بحمدها وثنائها، وتشكر للسيدة بركتها ونفحتها ورجعت إلى بناتها وقد استطارها الفرح فأخبرتهن بما جرى وكيف أن الله تعالى رد لهفتها ببركة السيدة نفيسة رضى الله عنها.

٥ - تزوج رجل من أهل المغافر، بامرأة ذمية من أقباط مصر فجاء منها بولد فأسر فى بلاد العدو فجعلت المرأة تذهب إلى الكنائس والأديار تسأل عن الأسارى وولدها لم يفك أسره ولم يجئ مع من كان يأتى من الأسارى.

فقالت لزوجها : (بلغنى أن من بين أظهرنا سيدة شريفة من أسرة نبيكم يقال لها السيدة نفيسة بنت الحسن ولها كرامات ونفحات فاذهب إليها لعلها تدعو لولدى فإن جاء آمنت بدينها) فجاء الرجل إلى السيدة نفيسة رضى الله عنها وقص عليها القصة فضرعت إلى ربها أن يرد عليه ولده ويخلصه من أسره.

فلما كان الليل إذا بالباب يطرق فخرجت المرأة، فإذا بها تجد الطارق ولدها وهو واقف بالباب فصاحت من فرحتها، واحتضنت ولدها ودموع الفرح تسيل على وجنتيها، ثم قالت : (يا بنى أخبرنى بأمرك كيف كان).

فقال : يا أماه كنت واقفًا بالباب فى الوقت المعين، وهو الوقت الذى دعت فيه السيدة نفيسة، وأنا فى خدمتى فلم أشعر إلاّ ويد وقعت على القيد وسمعت من يقول : (أطلقوه، فقد شفعت فيه

السيدة نفيسة بنت الحسن) فأطلقت من الغل والقيد، ثم لم أشعر بنفسي إلاّ وأنا أدخل من رأس محلتنا إلى أن وقفت على الباب وطرقته.

ففرحت به أمه وأبوه وشاعت هذه الكرامة فأسلم فى تلك الليلة أهل سبعين دارا ببركتها وأسلمت المرأة ووهبت نفسها لخدمة السيدة نفيسة رضى الله عنها.

٦ - وكان أحد أمراء عصرها يغلب على أحواله الظلم وقد طلب إنسانا ليعذبه، فلما قبض على الرجل أعوان الأمير، فبينما هو سائر معهم إذ مر بدار كريمة الدارين فصاح مستجيرا بها، فلما سمعت استجارته حتى دعت له بالخلاص.

وقالت له: (حجب الله عنك أبصار الظالمين).

فمضى به الأعوان حتى أوقفوه بين يدى الأمير.

فقال الأمير لأعوانه: (أين الرجل الذى أمرتكم بإحضاره).

فقالوا: (أيها الأمير، إنه واقف بين يديك).

فقال الأمير: (والله ما أراه).

فقالوا: (أيها الأمير، إنه مر بالسيدة نفيسة بنت الحسن ابن زيد رضى الله عنهم، فاستجار بها وسألها الدعاء، فدعت له بخلاصه، وقالت: حجب الله عنك أبصار الظالمين).

فقال : « أو بلغ من ظلمى هذا يارب، إنى تائب إليك وأستغفرك ». فلما تاب وقد نصح فى توبته وأخلص فى نيته إذا به يرى الرجل وهو واقف بين يديه. فدعاه إلى الاقتراب منه، وقام الأمير من مجلسه وأخذ برأس الرجل فقبله واعتذر إليه وصرفه من عنده شاكرا، ثم جمع ماله وتصدق ببعضه على الفقراء والمساكين وذهب إلى السيدة نفيسة رضى الله عنها ومعه مائة ألف درهم وقال : « خذى هذا المال شكرا لله تعالى بتوبتى »، فأخذته وأخذت تصرّه فى صرر بين يديها، ثم أمرت به ففرقته عن آخره، ولم تبق منه شيئا شأنها فى كل مال يوهب لها، وكان حاضرا عند ذلك بعض من يخدمنها من النساء فقالت لها : « يا سيدتى. لو أبقيت لنا شيئا من هذه الدراهم لنشترى بها شيئا نفطر عليه »، فقالت

لها « خذى غزلا غزلته بيدى فبيعيه بشيء تشترين منه ما نفطر عليه »، فذهبت المرأة وباعت الغزل وجاءت لها بما فطرت به هى وإيّاها، ولم تأخذ من المال شيئا.

٧ - وقال القضاعى رحمه الله تعالى : قلت لزينب بنت يحيى أخى السيدة نفيسة رضى الله عنهم : « ما كان قوت عمتك ؟ ».

قالت : « كانت تأكل فى كل ثلاثة أيام أكلة، وكانت لها سلّة معلقة أمام مصلاها، وكانت كلما طلبت شيئا للأكل وجدته فى تلك السلة، وكانت لا تأخذ شيئا من غير زوجها أو ما يحبوها به ربها

فالحمد لله الذى جعل لنا نصيبًا مما جعل للسيدة مريم بنت عمران عليها السلام، فإن الله تعالى قال فى كتابه المبين حاكيا عنها:

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنَّى لك هذا قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

وقد جعل الله للسيدة نفيسة رضى الله عنها، ما جعل للسيدة مريم عليها السلام ويقول الأستاذ أحمد فهمى فى ذلك:

وحبا الإله نفيسة بكرامة خصت بها من قبل ذلك مريم

فيض من الله الغنى ونفحة فتبارك الله الكريم المنعم

والله يرزق من يشاء بفضله والله يرفع من يحب ويكرم

٨ - وكان الإمام الشافعى رضى الله عنه إذا مرض يرسل إليها رسولا من قبله - كالربيع الجيزى أو الربيع المرادى - أو غيرهما من أصحابه فيقرئها سلامه ويقول لها: إن ابن عمك الشافعى مريض ويسألك الدعاء فتدعو له فلا يرجع إليه رسوله إلّا وقد عوفى من مرضه.

فلما مرض مرضه الأخير أرسل على عادته رسوله يلتمس منها الدعاء، فقالت لرسوله: «متعه الله بالنظر إلى وجهه الكريم».

فجاء الرسول إليه، فسأله عما أجابت به فقال له ما سمعه منها، فعلم أنه ميت.

ويقول بعض الصالحين ممن حضر جنازة الإمام الشافعى رضى الله عنه : « سمعت بعد انقضاء الصلاتين صوتًا ولا أرى شخصا يقول : إن الله تعالى غفر لكل من صلى على الشافعى بالشافعى، وغفر للشافعى بصلاة السيدة نفيسة عليه ».

٩ - وقد ذكرنا سابقا قصة الفتاة المقعدة التى جرى ماء وضوء السيدة الصالحة نفيسة رضى الله عنها على قدمها فشفيت.

١٠ - وكان الناس يهرعون إلى السيدة كريمة الدارين فى كل مقصد ويسألونها الدعاء فلا يلبثون حتى يجبر الله كسرهم ويقضى حاجتهم ويفرج كربهم ويكشف عنهم همومهم، فكانوا يزدحمون عندها.

- فقال زوجها إسحاق المؤتمن يوما لها : « ارحلى بنا إلى الحجاز ».

- فقالت : « لا أستطيع ذلك لأنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وقال لها : لا ترحلى من مصر فإن الله تبارك وتعالى متوفيك فيها ».

كراماتها بعد وفاتها :

ما من زائر لقبر كريمة الدارين إلّا حفّت به بركاتها وشملته نفحاتها فكم من مهموم زارها وضرع إلى الله تعالى فانحسرت غمومه

وانقشعت همومه، وكم من خائف مذعور من جور إلى حيف أو ظلم إلاّ وقد لقى الإنصاف وباعد الله عنه الظلم وأزال عنه العسف فسكن قلبه وعاد بعد زيارتها وهو وادع الحال ساكن البال مطمئن الفؤاد فمقامها من الأماكن المعروفة باستجابة الدعاء.

وكراماتها بعد وفاتها كثيرة وهى آية على إكرام الله تعالى إياها وعلى ما خصّ الله به آل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم من كرامات وأسبغ عليهم من نفحات وفيوضات.

١ - قال أبو موسى رحمه الله تعالى : «دخلت إلى ضريحها فوضعت يدى على الضريح فسمعت قائلا : «أهكذا تدخل على أهل بيت النبوّة».

٢ - وقال بعض المؤرخين : «كان بمصر رجل يقال له عفان ابن سليمان المصرى فوجد بداره كنزا دفينا. فأخذ يتصدق من هذا المال على الفقراء والمساكين والأيامى واليتامى والمحتاجين فأمعن فى صدقاته حتى كان لا ينام ليلة حتى يطعم خمسمائة بيت من أهل مصر، وكان يتلقى الحجاج كل عام من أرض التيه، وكان يحمل المنقطعين منه، ويكشف حاجتهم وينفس كربهم، وفى بعض الأيام اشترى من الأمير أحمد بن كيغلغ ألف حمل من البر، وبعد أيام قلائل وقع غلاء بمصر فزاد ثمن البر عن سعره بثلاثة أمثال فبعث إليه وأحضره بين يديه فقال له ابن كيغلغ : خذ ثمن البر الذى

اشتريته منى واردد البر أو ادفع ثمنه بالسعر الحاضر فقال له عفان : لا أفعل ذلك، ثم خرج عفان من عند الأمير غضبان أسفًا وذهب إلى داره وجلس على الباب فجاء إليه القوم وقالوا له : انظر ما وقع فى الناس من جدب وغلاء ومهما طلبت فى البر الذى عندك من ثمن فإنّا على استعداد لدفعه عن طيب خاطر. فقال لهم : لا والله تعالى فإنى إنما أدخر الثمن عند الله عز وجل، وإنى قد تصدقت به على الفقراء والمساكين والأيامى والأرامل، ثم قام من وقته وفرقه جميعه ولم يبق منه إلاّ ما يسد حاجته وحاجة أهله، فبلغ ذلك تكين بن عبد الله الحربى الأمير أبا منصور المعتضدى الخزرى أمير مصر، وكان جبارا مهيبا، وقد شكاه أهل مصر إلى العارف بالله تعالى بنان بن أحمد الواسطى الواعظ، فدخل عليه ووعظه وقال له : ارجع عن أهل مصر - فلم يرجع - ولم يسمع.

وأمر بإخراج بنان إلى بلاد المغرب فشكاه أهل مصر إلى العارف بالله تعالى الشيخ أبى الحسن الدينورى، فدخل عليه وعظمه ووعظه فلم يرجع وأمر بإخراجه من مصر إلى بيت المقدس.

وقد أمر تكين بأخذ أموال عفان، فذهب إلى السيد الشريف على ابن عبد الله، وقال له : «يا سيدى إنى أريد أن أخرج من مصر إلى غيرها من بلاد الله تعالى فرارًا من الظلم ومن بغى الجبار تكين»، فقال له الشريف على : «قم بنا إلى ضريح السيدة نفيسة

رضى الله عنها ندعو الله عنده أن يشغل هذا الجبار عنك »، فجاء عفان من جانب - والشريف من جانب آخر - قرءا ما تيسر من القرآن وسألا الله عز وجل أن يجعل ذلك واصلا إلى السيدة نفيسة رضى الله عنها وأن يفرج عن عفان ما هو فيه من ضيق وكرب فأخذتهما سنة من النوم فرأى الشريف على السيدة نفيسة رضى الله عنها وهى تقول له : « خذ عفان معك واذهب إلى تكين فقد قضيت حاجته » فلما استيقظ الشريف حدثه بما رآه فى نومه وأخذ بيده وتوجها إلى تكين فدخلا عليه فقام تكين إلى الشريف وهو يرعد، وكأنما قد حم لوقته وقال : « إنى رأيت السيدة نفيسة رضى الله عنها وهى تقول : أكرم الشريف عليا وارجع عن عفان واردد عليه ماله فإنه قد استجار بنا » فقال الشريف : هذا عفان بين يديك، فقال تكين : « والله ما رأيته، يارب إنى تائب إليك، فاقبل توبتى واغفر حوبتى » فتاب تكين من الظلم توبة نصوحا وأخلص نيته فرآه فى الحال فأكرمهما، وردّ إلى عفان ماله، وقال لعفان : « أنت عتيق السيدة نفيسة رضى الله عنها »، ثم أمر تكين بمال كثير تصدق به على الفقراء والمساكين وصار يحسن إلى أهل مصر ويعدل بينهم، وكان يقول : « كل أهل مصر يخافوننى وأنا أخاف من دعوة عفان عند ضريح السيدة نفيسة رضى الله عنها ».

وقد أحسن تكين من شأنه وحكمه فى أهل مصر، ولازم زيارة مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها، وكان يتصدق عنده بالمال

الكثير، وينفح خدمه بمنحات وأعطيات إلى أن توفى فى ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وقد أوصى بأن يدفن فى بيت المقدس، فحمل فى تابوت إلى بيت المقدس فدفن فيه.

أما السيد الشريف الذى تشفع لعفان بكرامة السيدة نفيسة فهو على بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن جعفر الصادق رضى الله عنهم، وكان من أهل الصلاح والتقوى والدين والعبادة - وله مشهد جليل - بناه الظافر الخليفة الفاطمى وكان يحمل إليه النذور.

وكان الفاطميون يأتون إلى هذه المشاهد ويتصدقون عندها بالأموال.

قال أبو عمر الكندى : وكانوا يجعلون عليها الستور، ومات على ابن القاسم هذا سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وحين تشفع لعفان بعث إليه عفان فى الليل مائة دينار فردّها وقال للذى جاء بها له : «قل له إن الله تعالى يقول : ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ فكيف أبيع نصيبى بمائة دينار» .

٣ - وحكى عن أبى العز اليمانى أنه قال : «كنت عزيزا فى قومى أثيرا فى عشيرتى من أكثرهم مالا وضياعا فاستطلت بنفسى وشمخت بأنفى وتكبرت على الناس واحتقرت أمرهم فلم ألبث حتى ذهب مالى وضاعت ضياعى فضاقت بى الأرض بما رحبت واشتدّ بى

الحال وصرت كاسف البال، فشمت بى العدو ورثى لى الصديق، فشكوت أمرى إلى أحد أصدقائى فأشار علىّ بزيارة الصالحين والدعاء عندهم عسى الله تعالى أن يأتى بفرجه القريب، فيذهب عنى ما نزل بى، فاعتزلت الناس، فرأيت فى نومى كأنى فى فضاء واسع فيه نور ساطع يظهر آونة ويختفى أخرى، فأخذنى العجب من ذلك، فإذا بقائل يقول : (هذا نور السيدة نفيسة بنت الحسن رضى الله عنها) فقلت : عسى الله أن يجمع بينى وبينها فأسألها الدعاء بأن يكشف الله كربتى ويفرج غمتى، فقيل لى : إنها قد توفيت، فقلت : (أغتنم بركة زيارتها) فسمعت من يقول : (أنا نفيسة يا أبا العز ففارق نفسك، وانزع عنها سوءها) فقلت : فارقتها فرقة لا عودة لى إليها، وإنى تبت إلى الله عز وجل مما فرط منى، فقالت : أبشر، فقد قبلت التوبة، وزالت الحوبة، فأصبحت فرحًا بما رأيت، وما لبثت أن زالت غمتى، وانفرجت كربتى، وحسن حالى، واستروح بالى، وصرت فى حالة أحسن من حالتى السابقة، وأفاض الله علىّ من نعمائه، وأسبغ على من آلائه أضعاف ما كنت فيه ببركة سيدة الدارين.

٤ - قال ابن إياس : كان لمحيى الدين بن مترى البزدار ابنة صغيرة لها من العمر نحو سبع سنين، وكان يسكن بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها، وكان على رأس الابنة كوفية من ذهب، فوقفت تلعب مع الصغار، وكان لهم جار صبى أمرد يعمل

فى صنعة القمريات، فلعبت عينه على الكوفية الذهب التى على رأس البنت، فلعب بعقلها وقال لها : إن والدتك فى السيدة نفيسة، وأرسلت تطلبك هناك، فمضت معه وأخذ معه عبدًا أسود، فلما توجهوا بتلك البنت إلى مكان خرب مهجور خلف مزار السيدة نفيسة ألقيا بالبنت فذبحاها هناك، وحملاها وألقياها فى فسقية موتى هناك وأخذا الكوفية التى على رأسها، وتركاها تتخبط فى دمائها، فأقامت هناك يوما وليلة، فكثر التفتيش عليها من أمها وأبيها، فنزل أبوها إلى السوق، وأوصى التجار بمراقبة الكوفية الذهبية التى كانت على رأس ابنته، فإذا رأوها أتوه بها، فبينما هو فى الصاغة وإذا هو بالصبي الأمرد الذى أخذ الكوفية وذبح البنت، يعرض الكوفية ويشهرها للبيع وباعها بسعر رخيص، وقبض عليه، وأحضروا أبا البنت وتوجهوا إلى باب الأمير كمشينا، فلما عرضوه على الوالى ضربه فأقر بأنه أخذ الكوفية من فوق رأس البنت، وأنه ذبحها ورماها فى فسقية موتى خلف مزار السيدة نفيسة، فقالوا له : امض معنا وأرنا ذلك المكان الذى رميتها فيه فخرج معهم وهو فى الحديد، وأتى بهم إلى تلك الفسقية التى رماها بها، فنزل أبو البنت إليها فوجدها راقدة وهى مذبوحة وفيها بعض روح ولم ينقطع وريدها من الذبح، فحملها وطلع بها من تلك الفسقية، فلما بلغ الأمير ذلك أرسل فأحضر الجميع بين يديه وقصوا عليه قصة الصبى وماجرى له مع البنت فحزن الأمير، وقال لها : من فعل بك هذا؟

فأشارت إلى الصبي والعبد الأسود الذى على باب البيت الذى تسكن فيه هى ووالدها، وأحضروا للبنت من ضمد لها جرحها الذى برقبتها وعاشت بعد ذلك وبرأت من الجرح.

وقد ذكر أن البنت ذكرت: (أنه بعد أن ألقيا بها فى الفسقية دخلت علىّ امرأة وعلى وجهها قناع، وقالت: لا تخافى إنى أنا السيدة نفيسة وغدا تخلصين من هذا المكان).

ثم مسحت الدم من رقبتى فانقطع فى الحال، وسكن روعى مما كنت فيه.

وقد انتشر حديث تلك الواقعة واشتهر أمرها فى القاهرة.

٥ - قال الإمام الشعرانى رحمه الله تعالى: «دخلت أنا لقبر السيدة نفيسة مرة فوقفت على باب مشهدها الأول أدبًا، ودخل أصحابى إلى قبرها، فلما نمت جاءتنى وعلى رأسها مئزر صوف أبيض، وقالت لى: «أنا نفيسة فإذا جئت للزيارة فادخل إلى قبرى فقد أذنت لك»، فمن ذلك اليوم، وأنا أدخل لزيارتها وأجلس تجاه وجهها.

ويقول الإمام الشعرانى أيضا:

رأيت فى كلام الشيخ أبى المواهب الشاذلى أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: «يا محمد إذا كان لك إلى الله تعالى حاجة فأنذر لنفيسة الطاهرة ولو بدرهم يقض الله تعالى حاجتك».

٦ - وعن الشيخ محمد على خلف الحسينى، أن جارا له كف بصره وعانى ما عانى وصرف الكثير فى سبيل الشفاء فعجزت عنه نطس الأطباء، فذهب يوما لزيارة المشهد النفيسى وأخذته سنة من النوم، فرأى كأن السيدة نفيسة قد دخلت عليه ووضعت شيئا فى عينيه فقام من نومه وقد رجع إليه نور عينيه وزاد ضياؤها وأصبح بصيرا فكان يداوم على زيارتها.

الإمام الشافعى بمصر:

يقول الأستاذ الكبير عبد الحليم الجندى فى كتابه عن الإمام الشافعى إن الشافعى كان بمكة سنة ١٩٤ عندما ثار أهل تنووتمى (زمام الجيزة وميت غمر الآن) على الوالى حاتم بن هرثمة، وبعث إليه الأمين جندا بين قوادهم السرى بن الحكم وعبد العزيز ابن الجروى فهزموا الثوار، وفى سنة ١٩٥ ولى مصر جابر ابن الأشعث الطائى، فلما خلع الأمين أخاه المأمون شغب عليه الأمراء والولاة وافترص السرى بن الحكم الفرصة ليبحث لنفسه عن مكان فظهر أمره وظل منذ قدوم الشافعى حتى وفاته مركز الأحداث بمصر، ولما عين المأمون واليا جديدا صار (السرى) من قواده، ثم عزل المأمون الوالى سنة ١٩٨، وولى معه محمد ابن موسى فقدم ابنه عبدا لله نائبا عنه سنة ١٩٩، وكان معه محمد ابن إدريس الشافعى، وتشغب الجند على عبد الله فقطع أرزاقهم فأعادوا الوالى

المعزول، ومات العباس بن موسى، مسموما، وثار (الجروى) فى تنيس وعبأ جنده فى مراكب حتى نزل بشطنوف فسيّر إليه الوالى جيشا على رأسه (السرى) فأسر السرى فى سنة ١٩٩، ثم أطلق الجروى سراحه ليحارب معه ضد الوالى فانتصرا. وخرج الوالى فى البحر الأحمر إلى مكة سنة ٢٠٠، وولى الجند السرى بن الحكم على مصر، فسار الجروى إلى الإسكندرية واستولى عليها فبقيت معه الإسكندرية وتنيس فأمسى شبه مستقل بمنطقة تدعى مملكة الساحل، وكان السرى واليا مسيطرا فى الداخل شبه مستقل بالبلاد عن بغداد هو الآخر، وفى سنة ٢٠٠ احتل الإسكندرية خمسة عشر ألفا من أهل قرطبة يقال لهم الربضيون طردوا من الأندلس لثورة قاموا بها، فسار إليهم الجروى فى خمسين ألفا.. وخالفه السرى إلى حاضرته (تنيس) فانكفأ (الجروى) راجعا من الإسكندرية، وفتحت الإسكندرية أبوابها لجند السرى فى سنة ٢٠١ وعزله المأمون بوال جديد هزم (السرى) وقبض عليه ونفاه إلى أخميم، وآثر الوالى الجديد بطانته على الخراسانيين فثاروا عليه فهرب وجاء كتاب المأمون لتولية (السرى) فأخرج من الحبس ليعود واليا فى الفسطاط سنة ٢٠١، وخطب السرى ودّ المصريين، وكان يقدم الشافعى ولا يؤثر أحدا عليه حتى إذا ثبت أقدامه أدار وجهه لأعدائه فأعمل فيهم القتل والصلب والنفى من البلاد، ولكن إعظامه للشافعى ظل فوق مشاكل الساعة.

وحدثت حروب داخلية وخلافات كثيرة والشافعى لا يتدخل فى السياسة وحلقته تضم جوانبها أحيانا على مناقدات الشعراء والفقهاء فلم نسمع أنه تطرق إلى خلافات الحكام أو مسّ ولو بالرأى الحرب التى تدور رحاها قيد خطوات من الجامع العتيق والوالى يكرمه ويعظمه ويستمع إلى موعظته « انظر من يكون صاحبك فإنه يحبك أو يبغضك، وانظر من يكون كاتبك فإنه يعبر عن عقلك الظاهر إلى الناس وعف عن أموال الناس يكثر شكرهم لك وإياك والانبساط إلى رعيتك فتذهب بذلك هيبتك ».

ولما هبط الإمام الشافعى أرض مصر ومعه تلميذه أبو بكر الحميدى وسأله بعض الأكابر أن ينزل عنده فقال : أريد أن أنزل عند أخوالى من الأزد (قبيلة أمه)، فذلك درس فى الوفاء تعلمه على النبى صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة فنزل عند أخواله بنى النجار وقصد الشافعى بعد ذلك دار عبد الله بن الحكم وربما توشجت بينه وبين ضيفه الصلات فى إبان دراسات عبد الله على مالك وسفيان.

وقد قال له عبد الله : « إذا أردت أن تسكن مصر فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به ».

قال : « يا أبا محمد من لم تعزّه الدنيا فلا عزّ له، وقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز، وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعا قط».

عنيت بهذه المقدمة عن الإمام الشافعى لأن كل زملائه ومريديه والذين رووا عنه هم فى الحقيقة من الذين كانوا يكثرون من زيارة السيدة نفيسة رضى الله عنها ويلتمسون منها البركة، وحين اتجه الإمام إلى مصر أنشد يقول :

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامه والقفر
ووالله ما أدرى إلى الفوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبرى

وكان رحمه الله موفور العلم غزير المادة، وكانت حافظته القوية خزانة لشتى المعارف التى كانت سائدة فى عصره إلى زلاقة فى اللسان وعذوبة فى البيان وقوّة فى المنطق والبرهان، وكان يلذ له أن يناظر العلماء لثقته فى نفسه وإيقانه بالغلبة والنصر ولعلمه أن المناظرات محك العلم ومختبر الصحيح والسقيم به.

ووفد الإمام إلى مصر وتم التعارف بينه وبين السيدة نفيسة رضى الله عنها، وتوثقت بينهما الصلات، وقد ربط بينهما نزوع إلى خدمة العقيدة الإسلامية وحرص على رفع منارها كل بطريقته وأسلوبه، وإنه لهدف مشترك لمثله تتقارب القلوب الصافية وتتلاقى الجهود المتفرقة المخلصة، وكانت دار السيدة كريمة الدارين بمثابة الجزيرة المطمئنة القائمة وسط بحر صاخب متلاطم الأمواج.

وقد اعتاد أن يزورها وهو فى طريقه إلى حلقات درسه فى مسجد الفسطاط وفى طريق عودته إلى داره، وفى غير ذلك من الأوقات، وكان يصلى بها التراويح فى مسجدها فى شهر رمضان

الكريم، وكان من عادته إذا ذهب لزيارتها صحبه بعض أصحابه، ومع جلال قدر الإمام الشافعي وعلو درجته، فإنه كان إذا ذهب إليها سألها الدعاء ملتمسا بركاتها، وقد سمع عليها حديث جدها المصطفى عليه السلام وإذا أصابه مرض جعله يتخلف عن زيارتها أرسل إليها رسولا من تلاميذه كالربيع الجيزى أو غيره فيقرئها سلامه ويقول لها: «إن ابن عمك الشافعى مريض ويسألك الدعاء» فترفع بطرفها إلى السماء وتدعو له فلا يرجع رسوله إلا وقد عوفى الإمام من مرضه وأبل من شكاته، ولما مرض مرضه الذى مات فيه أرسل لها على جارى عادته يلتمس منها الدعاء فقالت للقاصد متعه الله بالنظر إلى وجهه الكريم، وسأله الإمام الشافعى ماذا قالت له السيدة نفيسة رضى الله عنها؟ فقال له ما قالت فعلم أنه ميت، وأوصى أن تصلى عليه، فلما توفى سنة أربع ومائتين مروا به على بيتها فصلت عليه مأمومة، وكان الذى صلى بها إمامًا أبو يعقوب البويطى أحد أصحابه رضى الله عنه، وكان مرور جنازة الإمام الشافعى على بيتها بأمر السرى أمير مصر لأنها سألته فى ذلك إنفاذًا لوصية الإمام الشافعى رضى الله عنه لأنها لم تتمكن من الخروج إلى جنازته لضعفها من كثرة العبادة وقد قال بعض الصالحين ممن حضر جنازة الشافعى رضى الله عنه «سمعت بعد انقضاء الصلاتين أن الله تعالى غفر لكل من صلى على الشافعى بالشافعى، وغفر للشافعى بصلاة السيدة نفيسة عليه رضى الله تعالى عنها».

وجاء ذكر الشافعى بعد وفاته فى مجلس فقالت السيدة نفيسة تمتدحه وتترحم عليه : « رحم الله الشافعى فقد كان رجلا يحسن الوضوء »، وقالت عنه أيضا : « كان الإمام الشافعى صبورًا بكل ما فى الصبر من معنى يتلقى الشدائد بقلب ثابت، ويسعى هادئا ليزيل ما ألم به معتمدا على الله حق الاعتماد ومتوكلا عليه حق التوكل، شاكرا ما ابتلاه ضارعا أن يكشف عنه الضر مستبشرا بأجر من عند الله بقدر ما يتحمل من آلام، ويظل هكذا دون أدنى ضجر أو ملل حتى يزيل الله ما نزل به وحينئذ يصلى لله شاكرا فهو عند الابتلاء كان شكورا وعند دفع الضر كان من الشاكرين ».

علماء حول كريمة الدارين :

وكان يزورها ويسأل دعاءها وحديثها وقراءتها ويلتمس بركتها الإمام عثمان بن سعيد المصرى، وكذلك الشيخ أبو الفيض ثوبان ابن إبراهيم ذو النون المصرى وهو من كبار الصوفية. ومن كلامه : « إياك أن تكون للمعرفة مدعيًا أو بالزهد محترفًا، أو بالعبادة متملقًا، وفر من كل شىء إلى ربك ».

وكان يقول للعلماء : « أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علما ازداد فى الدنيا زهدا وبغضا. وأنتم اليوم كلما ازداد أحدكم علما ازداد فى الدنيا حبا وطلبا ومزاحمة، وأدركناهم وهم ينفقون الأموال فى تحصيل العلم وأنتم اليوم تنفقون العلم فى تحصيل المال ».

وكان يقول : «كل مدّع محجوب بدعواه، عن شهود الحق لأن الحق شاهد لأهل الحق بأن الله تعالى هو الحق، وقوله الحق، ومن كان الحق تعالى شاهدا له لا يحتاج مدعيا فالدعوى علامة على الحجاب عن الحق والسلام».

وكان يقول : «لكل شيء علامة وعلامة طرد العارف عن حضرة الله تعالى انقطاعه عن ذكر الله عز وجل».

وقال رضى الله عنه : «إذا تكامل حزن المحزون لم تجد له دمعة لأن القلب إذا رق سلا وإذا جمد وغلظ سخا».

وكان يقول : «من لم يفتش عن الرغيفين من الحلال لا يفلح فى طريق لله عز وجل».

ويقول : «قد غلب على العباد والنساك والقراء فى هذا الزمن التهاون بالذنوب حتى غرقوا فى شهوة بطونهم وفروجهم وحجبوا عن شهود عيوبهم فهلكوا وهم لا يشعرون، أقبلوا على أكل الحرام وتركوا طلب الحلال، ورضوا من العمل بالعلم يستحى أحدهم أن يقول فيما لا يعلم : لا أعلم. هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم من القبائح إن سألوا ألحوا وإن سئلوا شحّوا لبسوا الثياب على قلوب الذئاب، اتخذوا مساجد الله التى يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو والجدال، والقيل والقال، واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا فإياكم ومجالسهم».

وسئل رضى الله عنه عن الحديث : لم لا تشتغل به ؟

فقال : « للحديث رجال وشغلى بنفسى استغرق وقتى والحديث من أركان الدين ولولا نقص دخل على أهل الحديث والفقه لكانوا أفضل الناس فى زمانهم ألا تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون به دنياهم، فحجبوهم واستكبروا عليهم وافتتنوا بالدنيا لما رأوا من حرص أهل العلم والمتفقين عليها فخانوا الله ورسوله وصار إثم كل من تبعهم فى عنقهم، جعلوا العلم فخا للدنيا وسلاحا يكسبونها به بعد أن كان سراجا للدين يستضاء به ».

وقد استمر ذو النون يزورها فى حياتها ويزور قبرها بعد وفاتها إلى أن توفى سنة ٢٤٥.

وكذلك كان الفقيه الإمام عبد الله بن عبد الحكم من جلة أصحاب مالك وقد أفضت إليه رياسة المالكية بعد أشهب وقد بلغ هو وبنوه من الجاه والتقدم ما لم يبلغه أحد وكان صديقا للإمام الشافعى كما سبق أن بيّنا، وروى كثيرا عن الإمام الشافعى وكتب كتبه بنفسه وله مؤلفات عدة.

وكان لا ينقطع عن زيارة كريمة الدارين فى حياتها ولا عن زيارة قبرها بعد وفاتها، وقد سمع عليها الحديث واستفاد كثيرا من آثارها وأخبارها.

وممن زارها فى حياتها وعرف حق زيارة قبرها بعد موتها أبو سعيد سحنون بن سعيد الفقيه المالكى واسمه عبد السلام وغلب عليه سحنون باسم طائر حديد النظر لحدّته فى المسائل.

وأصله من حمص ورحل إلى مصر فسمع فيها من ابن القاسم وابن وهب وأشهب وغيرهم، وقد رحل كثيرا وهو صاحب المدونة، مفتى القيروان وقاضيه وأول من أظهر علم المدينة بالمغرب وقد اجتمعت فيه خصال قلما اجتمعت فى غيره من فقه بارع وورع صادق وصرامة فى الحق وزهد فى الدنيا وخشونة فى الملبس والمطعم وسماحة فى العطاء، وكان لا يقبل من أحد شيئا سلطانا أم غيره ولا يهاب سلطانا فى حق يقوله، سليم الصدر للمؤمنين، شديد على أهل البدع. انتشرت أمانته وأجمع أهل عصره على تقدمه وفضله وكان مع هذا رقيق القلب غزير الدمعة ظاهر الخشوع متواضعا قليل التصنع كريم الخلق حسن الأدب فكان سراج القيروان، وكان كلامه لله وصمته لله، إذا أعجبه الكلام صمت وإذا أعجبه الصمت تكلم وقد راوده الأمير أبو العباس أحمد بن الأغلب حولا كاملا على أن يوليه القضاء فأبى عليه فعزم عليه بالأيمان التى لا يخرج منها، فلما رأى ذلك سحنون اشترط على الأمير شروطا كثيرة فأعطاه كل ما سأل وأطلق يده فى كل ما دعاه إليه حتى قال له إنى أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك فإن فيكم ظلامات للناس منذ زمان طويل، فقال له الأمير نعم لا تبتدئ إلاّ بهم، وأجر الحق على مفرق رأسى

فتولى القضاء بهذه الشروط فى رمضان سنة أربع وثلاثين وقام قاضيا ستة أعوام لم يأخذ على قضائه شيئا.

ويوم أن قبل القضاء دخل على ابنته خديجة وكانت من الخيرات فقال لها : اليوم ذبح أبوك بغير سكين.

والربيع بن سليمان المرادى الفقيه المصرى، من الذين انتفعوا بحديث كريمة الدارين، وهو من أصحاب الإمام الشافعى وراوية كتبه وكان إمامًا ثقة صاحب حلقة بمصر.

وقد قال فيه الإمام الشافعى : ما فى القوم أنفع لى منه ولقد وددت أنى حسوته العلم.

وقال عنه أيضا : (الربيع راويتى) وهو أول من أملى الحديث فى جامع ابن طولون فى مدينة القطائع التى أنشاها أحمد بن طولون.

والربيع الجيزى، صاحب الإمام الشافعى من زائريها والموالين لزيارة ضريحها بعد وفاتها، وكان رجلا صالحا كثير الحديث مأمونا ثقة.

وقال أبو عمر الكندى فى الموالى : كان فقيها دينا.

وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى، من العلماء الذين داوموا على زيارتها فى حياتها ملتمسا دعواتها وبعد مماتها مستنزلاً بركاتها، وكان فقيها عالما راجح المعرفة جليل القدر فى النظر عارفا بوجوه الكلام والجدل وحسن البيان مقدما فى مذهب الشافعى وقوله

وحفظه وإتقانه. وله كتب كثيرة فى مذهب إمامه انتشرت فى أقطار الأرض شرقا وغربا، وكان تقيا ورعا صبورا وكان مجاب الدعوة، وقال الإمام الشافعى عنه : (المزنى ناصر مذهبى).

وحرملة بن يحيى التجيبى، ويكنى أبا حفص، ويقال : إن الإمام الشافعى نزل عنده، هو أيضا من زائريها فى حياتها وزائرى مقامها بعد موتها، وكان جليلا نبيل القدر.

وقد روى عن الشافعى من الكتب ما لم يروه الربيع منها كتاب الشروط وكتاب السنن وغيرهما، وكان إمامًا حافظا للحديث والفقه.

وكذلك ممن أوفى لها فى حياتها وبعد موتها طالبًا دعواتها وراجيا بركاتها أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى، وكان كبير السن جليل القدر استخلفه الشافعى فى حلقته وكان يقول : «ليس أحد أحق بمجلسى من أبى يعقوب»، وليس أحد من أصحابى أعلم منه.

وكان عالما فقيها لطيفا فى أسبابه يدنى الغرباء ويقربهم إذا قدموا للطلب ويعرفهم فضل الشافعى وفضل كتبه حتى كثر الطالبون لمذهبه وكتبه وكان ابن أبى الليث الحنفى قاضى مصر يحسده ويعاديه فأخرجه فى وقت المحنة فى القرآن فيمن أخرج من أهل مصر إلى بغداد، لم يخرج من أصحاب الشافعى غيره، فحمل إلى بغداد مع جماعة آخرين من العلماء فأركبوه على بغلة مغلولا مسلسلا فى أربعين رطلا من حديد، ويريدون بذلك منه القول بخلق القرآن

فأبى فحبسوه فى السجن ببغداد على تلك الحالة.

وكان فى كل جمعة يمشى إذا سمع النداء إلى باب السجن فيقول له السجان: إلى أين؟ فيقول له: إنى أجيب داعى الله، فيقول السجان: ارجع رحمك الله، فيقول: إنى أجبت دعوتك ربى فتمنعونى، ومازال هذا شأنه إلى أن توفى فى رجب فى يوم الجمعة قبل الصلاة سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وأبو موسى بن عبد الأعلى الصدفى الذى قال فيه الإمام الشافعى: (ما رأيت بمصر أعقل من يونس) ممن زاروا كريمة الدارين وداوم على زيارتها بعد وفاتها.

وكان جليلا ونبيلا من أهل الفقه والقرآن والحديث، أدرك سفيان بن عيينة وكتب عنه وكان إمامًا فى القراءات، قال أبو عمر الكندى: كان فقيرًا شديد التقشف مقبولا عند القضاء.

وقال يحيى بن حسان: «يونسكم هذا من أركان الإسلام» وكان ورعًا صالحا عابدا كبير الشأن.

ولم تكن السيدة نفيسة قد التقت بالإمام أحمد بن حنبل، ولو أنها سمعت عنه، عالما جليلا، انفرد بمذهب خاص له فى الفقه الإسلامى. كذلك الإمام أحمد لم يكن قد رأى كريمة الدارين من قبل، ولو أنه لا شك قد سمع بصلاحها، وألم بمظاهر تقواها، ولكن حدث أن بشر بن الحارث، وكان من كبار الخاصة الذين

يترددون على دار السيدة كريمة الدارين، ويعقدون معها فيها مجالس علم، انقطع عن زيارتها، فلما سألت عنه، وعلمت بمرضه، ذهبت تعوده فى داره، وهناك وجدت الإمام أحمد بن حنبل، فسأل الإمام أحمد صاحب الدار عمن تكون هذه السيدة، فلما عرف أنها هى السيدة نفيسة أحسن تحيتها، وطلب من بشر أن يسألها لهما صالح الدعوات، وهذا الطلب يدل على علمه بمقامها الروحى العظيم، وبدعائها المستجاب، وما كان للسيدة الكريمة أن تخيب رجاءهما وهى التى ما اعتادت أن تخيب لأحد عن عامة قاصديها رجاء بل استجابت لهما ودعت قائلة: «اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا أرحم الراحمين».

وأى دعاء أفضل من هذا؟ إن النجاة من النار هى الأمنية الأولى لكل مسلم، وهى مفتاح باب الجنة، وبعد أن دعت لهما دعاءها هذا طلبت إليهما أن يدعوا لها فوافقا، وتقول فى ذلك السيدة نفيسة رضى الله عنها: «لقد نعمت بمعرفة الأخ فى الله الإمام أحمد بن حنبل حينما كان عند صديقه بشر بن الحارث وهو على جانب عظيم من العلم والمعرفة وعلو القدر عند الله، وقد استجبت لطلبهما، ودعوت لهما، كما طلبت إليهما أن يدعوا لى، فكان ذلك، والله خير مجيب».

هؤلاء هم العلماء ورجال الدين الذين زاروا السيدة الطاهرة

كريمة الدارين فى حياتها، أما من زار المقام النفيسى بعد وفاتها من الأئمة والأعلام والأولياء الكرام فكثير ما هم، وما يزال المقام النفيسى مقاما لإجابة الدعوات، واستنزال الرحمات على أننى شخصيا أحب الصلاة فى هذا المسجد الطاهر، وهذه البقعة المباركة وأنا أدخل المسجد موقنًا أن الله سبحانه وتعالى العلى القدير سيجيب دعائى، **لأن هذا المقام الطاهر لياذ به من البأساء والضراء**، وزيارته مظهر من مظاهر المودّة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلاّ المودّة فى القربى﴾ فمن كانوا يرعون حق زيارتها بعد وفاتها ويستمرون على زيارة قبرها : أبو على الروزبارى، محمد بن أحمد بن القاسم البغدادى، الزاهد نزيل مصر وشيخها، صحب الجنيد، وجماعة من العلماء والصوفية، وأبو بكر أحمد بن نصر الرقاق، وبنان الجمال بن محمد بن حمدان أبو الحسن الزاهد (نزيل مصر وشيخها، كان ذا منزلة عظيمة فى النفوس، وكانوا يضربون بعبادته المثل)، وبكار بن قتيبة الثقفى.

والإمام الطحاوى أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى الحنفى وهو العلامة الحافظ انتهت إليه رياسة أصحاب أبى حنيفة بمصر، وكان أوّلاً شافعيًّا فقرأ على خاله المزنى فقال : والله لا جاء منك شىء، فغضب من ذلك، وأخذ عن أبى جعفر ابن أبى عمران، فلما صنف مختصره، قال : رحم الله أبا إبراهيم

لو كان حيا لكفّر عن يمينه، وقد ناب فى القضاء عن أبى عبيد الله محمد بن عبده، وله مؤلفات عدة.

وأبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر الكنانى المصرى المشهور بابن الحداد وكان إمامًا مدققا فى العلوم، وكان كثير العبادة، يصوم يوما ويفطر يوما، ويختم فى كل يوم وليلة جميع القرآن، ويختم فى يوم الجمعة فى الجامع قبل الصلاة ختمة أخرى فى ركعتين وقد أخذ الفقه عن جماعة منهم المنصور التميمى، ومحمد بن حرب.

وحمزة بن محمد بن العباس أبو القاسم الكنانى المصرى، وكان صالحا دينا، بصيرا بالحديث وعلله مقدما فيه، ولم يكن فى المصريين فى زمانه أحفظ منه، وعبد المنعم بن عبد الله بن غلبون بن المبارك أبو الطيب الحلبى نزيل مصر، أستاذ ماهر كبير كامل ثقة خير صالح دين، ولد بحلب فى رجب سنة تسع وثلاثمائة، وانتقل إلى مصر فسكنها وألّف كتابه : «الارشاد فى السمع» روى القراءة عرضًا وسماعًا عن إبراهيم بن عبد الرازق والحسين بن خالويه وغيرهما، وعرض عليه ابنه وكثير من علماء القراءات، وكان حافظا القراءة، ضابطا ذا عفاف ونسك وفضل وحسن تصنيف ووجد بخطه على بعض مؤلفاته :

صنفت ذا العلم أبغى الفوز مجتهدا   لكى أكون مع الأبرار والسعدا
فى جنة فى جوار الله خالقنا   فى ظل عيش مقيم دائم أبدا

وعبد الغنى بن سعيد الأزدى، المصرى السمرقندى، وكان ثقة صاحب سنة حافظا علامة، وكان الدارقطنى يفخم أمره ويرفع قدره، رخج جماعة من مصر يودعون الدارقطنى ويبكون لفراقه فقال: «أتبكون وعندكم عبد الغنى وفيه الخلف»، وقد انتفع به خلق كثير.

ومحمد بن على بن أحمد الإمام أبو بكر الإدفوى المصرى وكان متمكنا من اللغة العربية بصيرًا بالمعانى، كما برع فى علوم القرآن وكان سيد أهل عصره بمصر، وله كتاب التفسير فى مائة وعشرين مجلدا سماه الاستفتاء فى علوم القرآن، وقد ألفه فى اثنتى عشرة سنة.

والحوفى أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد صاحب إعراب القرآن فى عشرة مجلدات، كان إمامًا فى العربية والنحو والأدب، وله تصانيف كثيرة، والقضاعى القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة المصرى، الفقيه الشافعى قاضى الديار المصرية، وله مؤلفات عدة.

والحبال الحافظ الإمام المتفنن محدث مصر أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله النعمانى، ونصر بن عبد العزيز أبو الحسن الفارسى الشيرازى وهو شيخ محقق إمام مسند ثقة عدل، له كتاب الجامع فى القراءات العشر، ويحيى بن على أبو الحسن المصرى

ويعرف بابن الخشاب، وأحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام أبو العباس اللخمى الفاسي، وغير هؤلاء كثير، وقد ذكر منهم ممن زاروها فى حياتها، وبعد وفاتها، جمهرة من الصالحين والعلماء، وإلى اليوم يوالى زيارة مقامها الكثير من العلماء والعباد الصالحين ممن لا يحصيهم إلّا الله تعالى.

واقعة أحمد بن طولون:

ذكر القرمانى فى تاريخه وصاحب الغرر وصاحب المستطرف: أنه لما ظلم أحمد بن طولون استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: فى غد، فكتبت رقعة ووقفت فى طريقه، وقالت: (يا أحمد يا بن طولون) فلما رآها عرفها فنزل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها: «ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم ففسقتم وردت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لاسيا من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتموها فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنّا صابرون، وجوروا فإنّا بالله مستجيرون، واظلموا فإنّا إلى الله متظلمون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» قال: فعدل لوقته.

وهذه الواقعة مردود عليها:

أولا: أن ظهور الدولة الطولونية التى أولها أحمد بن طولون كان فى سنة أربع وخمسين ومائتين كما فى تاريخ الإسحاقى، وسنة خمسين ومائتين على ما فى تاريخ القرمانى، ووفاة السيدة نفيسة كانت فى رمضان سنة ثمان ومائتين باتفاق، ويعلم ذلك بمراجعة كتب التواريخ.

ثانيا: أن السيدة نفيسة رضى الله عنها كريمة الدارين سيدة طاهرة نقية بحيث لا يتوهم غبي غافل فضلاً عن فطن عاقل أنها تذهب إلى أحمد بن طولون، وتقف بالطريق تنتظره ليمر بها[1].

ولكن يمكن أن تغير الأسماء والظروف.. ونردها إلى شكوى بعض الناس من حاكم فى عهد السيدة نفيسة.. فاستدعته إلى دارها، وأوضحت له طريق الحق والعدل، فعاد إلى السير فى الخط المحمدى، وذلك نظرا إلى أن مجلس السيدة نفيسة كان يفد عليه العلماء وراغبو العلم، ولابد أيضا أن تثور قضايا الحياة فى المجلس النفيسي، ولابدّ أن يكون لها دور فى عمل كل ما هو خير، ومحاولة تغيير كل ما هو غير صالح[2].

ويوافقنى الأخ محمد شاهين حمزة على أن هناك اختلافًا كبيرًا فى

(١) هذه القصة نشرت فى بعض الكتب، كما نشرت فى مجلة العربى فى العدد ٩٠ (١١ محرم سنة ١٣٨٦).

(٢) نفيسة العلم والمعرفة (للأستاذ صلاح عزام).

إيراد هذه القصة، كما يذكر أن ابن طولون كان يعبد الله حق عبادته حين يكون منفردا، ولكن كانت تأخذه العزة بالإثم حين يباشر سلطاته فى أمور الناس حتى ضجت الرعية مما وقع عليها من ظلم، وتلقاء تعبّده وجدّه بحق أشفق عليه من مغبة معاملته للناس فأرشد وحيا وهو فى حلم كاليقظة إلى أن يعدل، وذكر بما ورد عن ذلك فى القرآن الكريم والحديث الشريف فأصلح إلى ما أرشد إليه وأطاع، وحكم بالعدل بعد ذلك، ثم أغرق فى عبادة الله حتى لقى ربه وهو من المقبولين.

كريمة الدارين تحفر قبرها فى دارها :

استقرت السيدة نفيسة رضى الله عنها فى الدار التى وهبها لها أمير مصر « السرى بن الحكم » فى خلافة المأمون العباسى. وانتقلت إليها سنة إحدى ومائتين فى ولايته الثانية، وقد سارع إلى أخذ البيعة بعد المأمون لولىّ عهده علىّ بن موسى بن جعفر بن علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه، وقد سماه المأمون بالرضا، وقد مات السرى بالفسطاط.

ويقول العلامة الأجهورى رحمه الله :

إن السيدة نفيسة رضى الله عنها حفرت قبرها الشريف بيدها، أى أمرت ببنائه حال صحتها لشدّة شوقها للقاء خالقها وعدم رغبتها فى الدنيا الفانية وزينتها وكانت عليها سحائب الغفران، تنزل فيه

للتعبد والتذكر بالدار الآخرة، وكانت تصلى فيه النوافل العديدة حتى قيل إنها قرأت فيه ستة آلاف ختمة ووهبت ثوابها لأموات المسلمين بخلاف ما كانت عليه من التعبدات.

قالت زينب بنت أخيها :

« تألمت عمتى فى أوّل يوم من رجب، وكتبت إلى زوجها إسحاق المؤتمن كتابًا، وكان غائبًا بالمدينة، تطلب إليه فيه المجىء إليها وموافاتها لإحساسها بدنو أجلها وفراقها لدنياها وإقبالها على أخراها، وما زالت متوعكة إلى أن كان أول جمعة من شهر رمضان فزاد عليها الألم وهى صائمة، فدخل عليها الأطباء، فأشاروا عليها بالإفطار لحفظ قوّتها ولتتغلب على مرضها وضعفها، فقالت :

« واعجباه، إن لى ثلاثين سنة وأنا أسأل الله عزّ وجل أن يتوفانى وأنا صائمة أفأفطر، معاذ الله تعالى ».

ثم أنشدت تقول :

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
زاد بى شوقى إليه وغرامى فى لهيب
طاب هتكى فى هواه بين واش ورقيب
لا أبالى بفوات حيث قد صار نصيبى
ليس من لام بعذل عنه فيه بمصيب
جسدى راض بسقمى وجفونى بنحيبى

فانصرف الأطباء وهم معجبون بقوّة يقينها وثبات دينها، وسألوها الدعاء، فقالت لهم خيرا ودعت لهم.

وقالت زينب :

« ثم إنها بقيت كذلك وقد أفترها الداء إلى العشر الأواسط من شهر رمضان فاشتدّ بها المرض واحتضرت، فاستفتحت بقراءة سورة الأنعام، فلا زالت تقرأ إلى أن وصلت إلى قوله تعالى : ﴿قل لله كتب على نفسه الرحمة﴾ ففاضت روحها الكريمة. وقيل : إنها قرأت : ﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾ فغشى عليها ».

قالت زينب :

« فضممتها إلى صدرى، فإذا بها تشهد شهادة الحق، وقبضت، واختارها الله لجواره، ونقلها إلى دار كرامته، وكان ذلك فى سنة ثمان ومائتين، وذلك بعد موت الإمام الشافعى بأربع سنين » رحمهم الله جميعا.

وما أحسن ما قال بعضهم فى خروج روحها رضوان الله عليها :

روح دعاها بالوصال حبيبها ... فأتت إليه مطيعة ومجيبه
يا مدعى صدق المحبة هكذا ... صدق المحب إذا دعاه حبيبه

وقد أوصت السيدة نفيسة رضى الله عنها أن لا يتولى أمرها غير بعلها، وكان مسافرًا، فلما ماتت قدم فى ذلك اليوم وهيأ لها زوجها تابوتا وقال : إنى لا أدفنها إلاّ بالبقيع عند جدها المصطفى صلى الله عليه وسلم، فتعلق به أهل مصر، وسألوه بالله عزّ وجل أن يدفنها عندهم، فأبى.

فاجتمعوا وذهبوا إلى عبد الله بن السرى، أمير مصر، وتوسلوا به إلى إسحاق بأن يدفنها عندهم، وأن يرجع عن عزمه، وخاصة أنها حفرت قبرها بيدها فى دارها.

فسأله الأمير فى ذلك، وقال له : «بالله لا تحرمنا من مشاهدة قبرها، فإنّا كنّا إذا نزل بنا أمر جئنا إليها فى دارها فى حياتها نسألها الدعاء، فما تنتهى من دعائها إلاّ وقد كشف الله عنا ما نزل بنا، فدعها لتكون فى أرضنا، فإذا نزل بنا أمر جئنا إلى قبرها فسألنا الله تعالى عنده». فأصرّ على نقلها ولم يرض ما طلبه القوم وما عرضه الوالى.

فجمعوا له مالا جزيلا وسق بعيره الذى وفد عليه، وسألوه البقاء فأبى، فباتوا فى ألم عظيم وهمّ مقيم، وقد تركوا المال عنده، فلما أصبحوا جاءوا إليه فوجدوا منه ما لم يروه من قبل، فإنه أجابهم عن طيب خاطر إلى دفنها عندهم، وردّ عليهم مالهم، فسألوه عن ذلك، فقال :

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام، وقال لى : يا إسحاق، ردّ على الناس أموالهم وادفنها عندهم ».

ففرح القوم وأخذوا يكبّرون.

ولما توفيت اجتمع الناس من القرى والبلدان، وأوقدوا الشموع تلك الليلة وسمع البكاء عليها من كل دار بمصر وعظم الأسف والحزن عليها، وصلى عليها بمشهد حافل ودفنت بالمكان الذى حفرته.

وكان يوم دفنها يومًا مشهودا، ازدحم فيه الناس ازدحامًا شديدا وأخذوا يزورون قبرها ويأتون إليه من بلاد متعددة يصلّون ويذكرون ويدعون.

وقد كانت وفاة السيدة الصالحة كريمة الدارين فى عهد ولاية عبد الله بن السرى بن الحكم الذى بايعه الجند فى يوم ٩ شعبان سنة ستة ومائتين فى اليوم التالى لوفاة أخيه محمد بن السرى أمير مصر.

وكان السرى وبنوه الأمراء يبجّلون السيدة نفيسة رضى الله عنها ويعظمونها فأمر عبد الله بأن يبنى لها مقام على قبرها إعلامًا لعلو شأنها وآية على رفعة قدرها وإظهارًا لجلالها، وكان بناء ذلك المقام عقب وفاتها سنة ثمان ومائتين، وفى ولاية الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن الخليفة المستنصر

بالله الذى ولى الخلافة سنة أربع وعشريـن وخمسمائـة ومـكث فى خلافته إلى سنة أربع وأربعين وخمسمائة وقد أمر ببناء قبة على قـبرها الشريف وببناء مدفن للفاطميين بجوارها من الجهة الغربية.

وقد أخذ الكثيرون فى بناء القبور لهـم ولـذويهم حـول ضريـح السيدة نفيسة رضى الله عنها تبركا بجوارها.

وكان مكتوبا على باب المقام هذان البيتان وهما من قول الإمـام الشافعى، رضى الله عنه:

يا آل بيـت رسـول الله حبكمو   فرض من الله فى القرآن أنـزله

يكفيكمو من عظيم القـدر أنـكمو   من لم يصلّ عليكم لا صـلاة لـه

عندما تزور المقام النفيسى:

وجب على من يزور مقام كريمة الدارين السيدة نفيسة رضى الله عنها أن يبدأ بصلاة ركعتين لله تعالى تحية لمسجدها، ثم يتجـه إلى ضريحها فى خشوع، قال أبو موسى: «دخلت إلى ضريحها فـوضعت يدى على الضريح، فسمعت قائلا يقول: أهكذا تـدخل على بيـت أهل النبوّة».

ثم يقول الزائر عند دخوله من بـاب الضريـح[1]: «رحمـة الله

---

(١) كان الصحابة رضى الله عنهم. إذا جاءوا قبر النبى صلى الله عليه وسلم سلموا عليه واستقبلوا القبلة ودعوا الله بما شاءوا. وكذلك يفعل الذين أنار الله بصائرهم فى زيارة =

وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد، اللهم إنك قد ندبتني إلى أمر قد فهمته واعتقدته وجعلته أجرًا لنبيك محمد صلى الله عليه وسلم. الذى هديتنا به إليك ودللتنا به عليك، فكان كما قلت: (وكان بالمؤمنين رحيما) حبيبا إليه ما هديتنا عزيزا عليه ما عنتنا، وتلك الفريضة التي سألتها له وهي المودّة في القربى، اللهم إنى مؤدّيها مريد النفع بها فى دينى ودنياى متوسل إليك بها يوم انقطاع الأسباب اللهم زدهم شرفا وتعظيما، وهب لنا بزيارتهم مغفرة وأجرا عظيما.

السلام عليكم يا بنى المصطفى، يابنى فاطمة الزهراء، السلام عليك يا نفيسة العلم، يا كريمة الدارين وجناح الرحمة، السلام على آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين، اللهم صلِّ على محمد وآل بيت محمد وعلى أصحاب محمد وعلى أزواج محمد وعلى ذرية محمد، وسلم تسليما، اللهم بلغنى ما أملت وما رجوت وأعد

= الأولياء، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾.

ولذلك لا يجوز أن تتخذ حواز الوسيلة وحصول الشفاعة بالمبالغة فى الطواف حول الأضرحة والتوسل بها إلى قضاء الحاجات بل تتجه إلى القبلة وتدعو الله فى هذا المكان الطاهر.

قال النبى صلى الله عليه وسلم. أربّنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟

فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾.

علىّ وعلى المسلمين من بركاتهم ونفحاتهم يارب العالمين ».

وسلام على عباده الذين اصطفى، والحمد لله رب العالمين.

وقال الموفق بن عثمان :

« كان بعض السلف يزور السيدة نفيسة، رضى الله عنها، فيقول عند ضريحها : السلام والتحية والإكرام والرضا من العلىّ الأعلى على السيدة نفيسة، سلالة نبىّ الرحمة، وشفيع الأمة، من أبوها علم العترة وهو الإمام حيدرة، السلام عليك يابنت الإمام الحسن المسموم، أخى الإمام الحسين المظلوم، السلام عليك يابنت فاطمة الزهراء، وسلالة خديجة الكبرى، رضى الله عنك وعن أبيك وعمك وجدك، وحشرنا الله فى زمرتهم أجمعين، اللهم بحق ماكان بينك وبين جدّها محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج اجعل لنا من أمرنا الذى نزل بنا باب انفراج واقض حوائجى، فإن كانوا جماعة، يقولون واقض حوائجنا فى الدنيا والآخرة بمحمد وآله وصحبه أجمعين.

وكان بعضهم يدعو بدعاء آخر فيقول :

السلام والتحية والإكرام، على أهل بيت النبوّة والرسالة الكرام، السلام والرحمة على نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن علىّ وابن فاطمة الزهراء رضى الله عنهم.

أنتم غياث لكل قوم فى اليقظة والنوم، فلايحرم فضلكم إلاّ محروم ولايطرد عن بابكم إلاّ مطرود، ولايواليكم إلاّ مؤمن تقى، ولايعاديكم إلاّ منافق شقى، اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وأعطنى خير مارجوت بهم وبلغنى خير ماأملت فيهم، يا آل بيت المصطفى، إنما السرور والسلامة فيكم، جئتكم قاصدًا فبالله اقبلونى فقد حسبت عليكم، اللهم :

إنى ألوذ بحب آل محمد   أرجو لذلك رحمة الرحمن
منى الدعاء بحبهم لك دائما   يا دائم المعروف والغفران

وكان بعضهم يقف على ضريحها ويقول :

يا رب إنى مؤمن بمحمد   وبآل بيت محمد وموالى
فبحقهم كن لى شفيعا منقذا   من فتنة الدنيا وشر مآلى

وكان بعض السلف إذا دخل ضريحها قال :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد، اللهم إنى نازل إليك بأعتابهم متقرب بولائهم متذرع بالطاهرين من رجالهم والطاهرات من نسائهم، اللهم زدهم شرفا وتعظيما، وشرفهم شرفا حادثا وقديما، وهب لنا من زيارتهم مغفرة وأجرًا عظيما، السلام عليكم يا آل بيت المصطفى يابنى فاطمة الزهراء، يابنى علىّ المرتضى يابنى الحسن والحسين يا أهل النبى، أنتم القومِ لايحرِم من خيركم

إلا محروم ولايطرد من بـابكم إلا مـطرود ولايـواليكم إلاّ تـقى ولايعاديكم إلاّ ق.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمـد وعلى أصـحاب محمـد، وعلى أزواج محمد وعلى ذرية محمد، اللهـم أنلـنى مـارجوت بهـم، وبلغنى ماأملت فيهم وأعد على من بركات السعى إليهم، وهوّن علىّ موقفى بين يديك، بالوقوف بين أيديهم».

ثم يقرأ الفاتحة، ويدعو حاجته من أمر دنياه وأخراه.

وكان بعض السلف، يقف أمام قبرها فى خشوع ويقول:

«السلام والتحية والإكرام على أهـل بيـت النبـوّة و الـرسالة، السلام عليك يابنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط ابن الإمام علىّ رضى الله عنهم أجمعين، السلام عليك يابنت فاطمة الزهراء وياسلالة خديجة الكبرى، أنتم يا أهل البيت غياث لكل قوم فى اليقظة والنوم، فلايحرم من فضـلكم إلاّ محـروم، ولايـطرد عـن بابكم إلاّمطرود، ولايواليكـم إلاّ مـؤمن تـقّ ولايعـاديكم إلاّ منـافق شقى، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسـلم اعـطنى خير مارجوت منهم وبلغنى خير مـاأملت فيهـم واحفـظنى بـذلك فى دينى ودنياى وأخراى، إنك على كل شىء قدير..» ثم يقول:

يا بـنى الـزهراء والنـور الـذى ظـن مـوسى انـه نـار قبس
لا أوالى الـدهر مـن عـاداكم إنهـم آخـر سـطر فى عبس

يشير إلى قوله تعالى فى آخر آى عبس ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

وقد قال بعض السلف الصالح من العارفين: من كان فى شدّة وكرب وأراد تفريجه عنه، فليتوجه لكريمة الدارين السيدة نفيسة رضى الله عنها، وليقل عند قبرها بعد قراءة الفاتحة مرة والإخلاص إحدى عشرة مرة وسبح كذلك، ثم يقول:

كم حاربتنى شدة بجيشها فضاق صدرى من لقاها وانزعج
حتى إذا أيست من زوالها جاءتنى الألطاف تسعى بالفرج

ثمانى عشرة مرة. فإن الله سبحانه وتعالى يفرج عنه كربه ويقضى سؤاله.

قال المقريزى فى خططه: وقبر السيدة نفيسة رضى الله عنها أحد المواضع المعروفة بإجابةالدعاء بمصر، وهى أربعة مواضع:

سجن نبى الله يوسف الصديق عليه السلام، ومسجد موسى صلوات الله عليه ومشهد السيدة نفيسة، رضى الله عنها، والمخدع الذى على يسار المصلى فى قبلة مسجد الأقدام بالقرافة.

ويقول السخاوى فى تحفته: «ولم يزل الصالحون والأئمة والفقهاء والقراء والمحدثون والعلماء يزورون مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ويدعون عنده، وهو مجرب بإجابة الدعاء».

وقال بعض الصالحين : إن الله تعالى وكل بقبرها ملكا يقضي حاجات الناس، رضى الله عنها.

الشعراء وكريمة الدارين :

قال المرحوم الشيخ أحمد محمد الكنانى رحمه الله :

بهذى الرحاب رحاب الكرام	أخنت ركابى فحاشا أضام
وكيف وإنى محب ولى	بتلك المغانى هوى وغرام
فما القلب يصبو إلى غيرها	ورؤية عينى سواها حرام
إذا زاد سقمى وعز الشفاء	فقربى منها يزيل السقام
وإن لم أمتع بها ناظرى	فأنى لعينى طيب المنام
كلفت صغيرا بتلك الربوع	وقلبى يحن لتلك الخيام
وليس عجيبا فإن بها	مقام نفيسة بنت الكرام
نفيسة ذات العلوم ومن	من الله فازت بأعلى مقام
كشمس النهار كراماتها	وكم من دليل على ذاك قام
فكم من أخى شقوة أمها	فعاد سعيدا ونال المرام
وكم من حزين أتاها فعا	د قرير العيون علاه ابتسام
كفى بابن إدريس لى شاهدا	على ماأقول وهذا إمام
أسيدتى إننى واقف	ببابك أرجو وجودك عام
وليس من الجود أنى أعود	بخفى حنين وأنتم كرام

نعم إنني لم أكن صالحا وإن ذنوبي عظام جسام
ولكن نزلت بساحة من تجيب الضعيف إذا الدهر ضام
فأنت رجائي بعد الإله ومن جاء هذا الحمى لا يضام
وجدّك طه شفيع العصاة وغوث الخلائق يوم الزحام
عليه من الله في كل آن أجلّ الصلاة وأزكى سلام

وقال الشيخ أحمد الحامى - رحمه الله تعالى - فى مدحها وزيارتها :

يا صاح إن رمت الحياة الفاخرة فاقصد حمى بنت الكرام الطاهره
ذات الكرامات المعظمة التى أسرارها بين الخلائق ظاهره
وبها توسل واحتمى بجوارها واذكر مصابك تلقها لك ناصره
فهى المنجية الشباب من العذا ب مغيثة الملهوف شمس الدائره
كم جاءها ذو فاقة يرجو الغنى جبرت بتيسير المعايش خاطره
فاغنم وسل بمقامها تعط المنى فعلى الدوام لزائريها حاضره
وادخل وطف واسْع وسلْ بتأدب ما تشتهيه ونادها يا طاهره
إنى قصدتك مستغيثا لائذا مستعطفا أهل القلوب العامره
حاشا وكلا أن يضام نزيلكم أو أن يعود بصفقة هى خاسره
يا كعبة الأسرار جئتك لائذا أبغى الندى من وكف كف عاطره
يا أم قاسم الغياث فإننى عبد ضعيف الحال يدى قاصره
دنف ومسكين مهين عاثر مالى معين قط عينى ساهره
يا بنت طه أنقذى من لم يجد جاها سوى ذى المعجزات الظاهره

المصطفى الهادى البشير محمد ... من يرتجى كل الأنام مآثره
صلى عليه الله ما بدرٌ زها ... والآل والصحب النجوم الزاهره
أو ما استغاث الحامى أحمد قائلا ... ياصاح إن رمت الحياة الفاخره

ويقول الأستاذ الفاضل أحمد فهمى محمد :

قف لائذا بسليلة الزهراء ... بنت النبى كريمة الآباء
ذات العلا والمكرمات نفيسة ... بنت الأمير وسيد الكرماء
وكريمة الدارين سيدة الحمى ... غوث اللهيف وفرجة الغماء
فاقصد حماها راجيا متوسلا ... وارفع أكف ضراعة ودعاء
فهناك مهبط رحمة وشفاعة ... وبه ينابيع من النعماء
الفيض فى جنباته ومقامها ... حرم من البأساء والضراء
والنور يسطع فى حفاف قبرها ... نور النبوة فى سنى وسناء
فالله ينفعنا بها وبجدها ... والله يكتبنا مع السعداء

وقال الإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى، صاحب البردة والهمزية رضى الله عنه مادحًا السيدة نفيسة وآل البيت رضى الله عنهم :

جنابك منه تستفيد الفوائد ... وللناس بالإحسان منك عوائد
فطوبى لمن يسعى لمشهدك الذى ... تكاد إلى مغناه تسعى المشاهد
إذا ما أتاه القاصدون تيسرت ... عليهم -وإن لم يسألوك- المقاصد

تحققت البشرى لمن هو راكع ... يرجى به فضلاً ومن هو ساجد
فعفرت الشبان والشيب أوجها ... به والعذارى حسرا والقواعد
هو المنهل العذب الكثير زحامه ... فرده فما دون وِرْدك ذائد
أتيت إليه والرجاء مخلاً ... فما عدت إلاّ والمخلا وارد
فيالك من يأس بلغت به المنى ... وعسر لأقفال اليسار مقالد
ألذّ من الماء الزلال مواقعا ... على كب الظمآن والماء بارد
سليلة خير العالمين نفيسة ... سمت بك أعراق وطابت محاتد
إذا جحدت شمس النهار ضياءها ... ففضلك لم يجحده فى الناس جاحد
بآبائك الأطهار زينت العلا ... فحبات عقد المجد منهم فرائد
ورثت صفات المصطفى وعلومه ... ففضلكما - لولا النبوة - واحد
فلم ينبسط إلا بعلمك عالم ... ولم ينقبض إلا بزهدك زاهد
معارف ما تنفك تفضى بسرها ... إلى ماجد من آل أحمد ماجد
يضيء محياه كأن سناءه ... إلى الصبح سار أوإلى النجم صاعد
إذا ما مضى منهم إمام هدى أتى ... إمام هدى يدعو إلى الله راشد
تبلج من نور النبوة وجهه ... فمنه عليه للعيون شواهد
وفاضت بحار العلم من قطر سحبها ... عليه فطابت للرواء الموارد
رأى زينة الدنيا غرورًا فعافها ... فليس له إلا على الفضل حاسد
كأن المعالى الآهلات بغيره ... ربوع خلت من أهلها ومعاهد
إذا ذكرت أعماله وعلومه ... أقر لها زيد وبكر وخالد
فقل لبنى الزهراء والقول قربة ... لكل لسان فيهم أو حصائد

أحبكم قلبي فأصبح منطق ... يجادل عنكم حسبة ويجالد
وهل حبكم للناس إلا عقيدة ... على أسّها في الله تبنى القواعد
وإن اعتقادًا خاليًا من محبة ... ووِدٌّ لكم آل النبي لفاسد
وإني لأرجو أن سيلحقني بكم ... ولائي فيدنو المطلب المتباعد
فإن سراة القوم منهم عبيدهم ... وإن حروف النطق منها الزواد

فدتكم أناس نازعوكم سيادة ... فلم أدر سادات هُمُ أم أساود
أرادوا بكم كيدا فكادوا نفوسهم ... بكم وعلى الأشقى تعود المكايد
فإن حيزت الدنيا إليهم فإن من ... نفى زيفها سلها إليهم لناقد
ولو أنكم أبناؤها ما ابتكمو ... وما كان مولود ليأباه والد
إذا ماتذكرت القضايا التي جرت ... أقضّت على جنبي منها المراقد
وجددت الذكرى على بلا سلا ... أكابد منها في الدجى ما أكابد
أفي مثل ذاك الخطب ماسل مغمد ... ولاقام في نصر القرابة قاعد
تعاظم رزء فالعيون شواخص ... له دهشة والشاكلات سوامد
وطفف يوم الطف كيل دمائكم ... إذ الدم جار فيه والدمع جامد
فيا فتنة بعد النبي بها غدا ... تهدم إيمان وتبنى مساجد
وما فتنت بعد ابن عمران قومه ... بما عبدوا إلا ليهلك عابد
كذاك أراد الله منكم ومنهمو ... وليس له فيما يريد معاند
ولولم يكن في ذاك محض سعادة ... لكم دونهم لم يغمد السيف غامد
وأنتم أناس أذهب الرجس عنهم ... فليس لهم خطب وإن جل جاهد
إذا ما رضوا لله أو غضبوا له ... تساوى الأداني عندهم والأباعد

وسيان من جمر العدا متوقد ... على بهرمان الصدق منكم وخامد

وفدت عليكم بالمديح وكلكم ... عليه كتاب الله بالمدح وافد

وقد بينت لى هل أتى كم أتى بها ... مكارم أخلاق لكم ومحامد

فلولا تغاضيكم لنا فى مديحكم ... لردت علينا فى العيوب القصائد

ولم أرتزق من غيركم بتجارة ... بضائعها عند الأنام كواسد

عمدت لقوم منهم فكأننى ... على عمد لايرجع القول عامد

أأطلب من قوم سواكم مساعدا ... وقد صدّهم حرمانهم أن يساعدوا

ومن وجد الزند الذى هو ثاقب ... فلن يقدح الزند الذى هو صالد

وحسبي إذن مدح ابنة الحسن التى ... لها كرما مجد طريف وتالد

وإنى لمهدٍ من ثنائى قلائدا ... إليها حلال هديها والقلائد

هى العروة الوثقى هى الرتب العلا ... هى الغاية القصوى لمن هو قاصد

كأنى إذا أنشدت فى الناس مدحها ... لما ضل من ذكر المكارم ناشد

أسيدتى إنى رجوتك معلنًا ... بما أنا من درّ المناقب ناضد

وأعين آمالى إليك نواظر ... بما أنا من عادات فضلك عائد

وما أجدبت قوم أتى من لدنهم ... لمرعى الأمانى من جنابك رائد

ولولا ندى كفيك ما اخضرّ يابس ... ولا اهتز من أرض المكارم هامد

إلى الله أشكو يابنة الحسن الذى ... لقيت وإنى إن شكوت لحامد

وما لى لا أشكو لآل محمد ... خطوبا بها ضاقت على المراصد

وما لصروف الدهر عنى صارف ... وما لهموم القلب عنى طارد

تسلط شيطان من النفس غالب ... علىّ وشيطان من البؤس مارد

فياويح قلب ما يزال سماؤه ... بها لشياطين الخطوب مقاعد
فياسامع الشكوى ويا كاشف البلى ... إذا نزلت فى العالمين الشدائد
ويا هادى الطفل الرضيع ولم تثب ... إليه قوى عقل ولا اشتد ساعد
ويامن سقى الوحش الظماء وقد حمت ... مواردها من أن تنال المصائد
ويامن يزجى الفلك فى البحر لطفه ... وهن جوار بل وهن رواكد
ويامن هو السبع الطوابق رافع ... ومن هو للأرض البسيطة ماهد
ويامن تنادينا خزائن فضله ... إلى رفده إن أمسك الفضلَ رافد
فلاباب من تلك الخزائن مغلق ... ولاخير من تلك الخزائن نافد
دعوناك من فقر إليك وحاجة ... وكلٌ بما يلقاه للصبر فاقد
وأفضت بما فيها إليك ضمائرى ... وأنت على ما فى الضمائر شاهد
دعوناك مضطرين يارب فاستجب ... فإنك لم تُخلَف لديك المواعد
فليس لنا غوث سواك وملجأ ... نراجعه فى كربنا ونعاود
فقدِّر لنا خير الذى أنت أهله ... فما أحد عمّا تقدّر حائد
وصفحا عن الذنب الذى هو سابق ... لنارك - إلاّ إن عفوت - وقائد
وصل حبلنا بالمصطفى إن حبله ... لنا صلة يارب منك وعائد
عليه صلاة الله ماحمد السرى ... إليه وذلّت للمطى فدافد

خـــاتمـة

أختتم كتابى هذا راجيًا مـن المولى العلىّ القـدير أن يـكون قـد وفقنى، وأن أكون عند حسن ظن القارئ الكريم، كما أسجد شكرًا لله سبحانه وتعالى على توفيق فى كتابته وفى إخـراجه بـالصورة الـتى يراها القارئ بين يديه، وكم كنت أرجو أن أتوسع فى الكتابة عـن السلالة الطاهرة بقية أهل البيت، الذين أذهب الله عنهـم الـرجس وطهرهم تطهيرًا، خصوصًا العقيلة الطاهرة السيدة زينب بنت الإمام علىّ رضى الله عنهما، لأنها سليلة من سـلالة النبـوّة، وفـرع مـن شجرة الرسـالة، وعضو من أعضـاء الـرسول، وجـزء مـن أجـزاء الوصى والبتول، فهى كريمة النبعتين عريقة الطرفين، وقـد أشرت فى عدة مناسبات إلى شجاعتها النادرة وصبرها المنقـطع النـظير، ولـكنى فضّلت أن أترك هذا الموضوع إلى الصديق الكريم الأستاذ على شلبى رئيس مجلس إدارة مسجد السيدة زينب -رضى الله عنها.

أما الموضوع الأخير فى هذا الـكتاب، وهـو الفصـــل الخـــاص بكريمة الدارين السيدة نفيسة رضى الله عنها، فقد أبرزته كما وعدت فى المقدمة لأنى من مريدى كريمة الـدارين أتبـارك بـزيارة ضريحهـــا الطاهر وأتفاءل بالصلاة والدعاء فى مسـجدها المبـارك الـذى أتشرف برئاسة مجلس إدارته.

وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقني فى إخراج الجزء الثانى فى القريب العاجل إن شاء الله تعالى.

وأقدم جزيل شكرى إلى كل من تفضل فأمدنى بالمراجع التى رجعت إليها، وأخص بالذكر الأستاذ يحيى صبرى أبو علم، فقد أمدنى بكثير من المراجع النادرة من خزانة كتبه، وشكرًا جزيلاً لرائد التجاريين الدينى الأستاذ حسن الملطاوى.

والله ولى التوفيق والحمد لله رب العالمين.

توفيق أبو علم

الفهرست

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٠ / ٣٠٦٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٩٠٨-٣ ISBN

١ / ٩٠ / ٣٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هـذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب سيرة كريمة الدارين : ابنة الإمام الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الإمام الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

ويطوف المؤلف بكثير من مواقف السيدة نفيسة التى تميزت بالعلم والخلق والنفحات والكرامات .. باعتبارها سليلة من سلالة النبوة ، وفرعاً من شجرة الرسالة وعضواً من أعضاء الرسول الكريم ..

ويشير الكتاب كذلك إلى شجاعتها النادرة ، وصبرها المنقطع النظير .. بما يجعلها قدوة لنساء المؤمنين ..



ص ٣٥٠